مقدمة في فلسفة الأيديولوجيا

ودعوى تطبيقها على العقائد

عرض ونقد

إعداد

د/ عواد محمود عواد سالم

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة

ملخص البحث باللغة العربية :

مصطلح الأيديولوجيا هو أحد المصلحات التي أفرزتها الفلسفة المعاصرة ، وقد ظهر هذا المصطلح في بيئته الأولى ليدل على (علم الأفكار) ، وأول من استخدمه (دستو دي تراسي) غير أن هذا المصطلح شهد بعد ذلك تغيرات وتحولات دلالية ، فأصبح يدل على معاني سلبية : كالوعي الزائف ، والخداع ، واستبعاد الميتافزيقا .

وبذلك انتقلت الأيديولوجيا من مجرد مصطلح إلى نزعة فلسفية تأثرت بعناصر كثيرة من فلسفات أخري :كالوجودية ، والماركسية ، والبراجماتية ، والوضعية المنطقية.

وقد اغتر بعض أنصار الأيديولوجيا بها فظنوها بديلة عن الدين ، هذا في العالم الغربي ، أما في عالمنا الإسلامي : فقد حاول بعض دعاة الحداثة إدخال العقائد ضمن المنظومات الأيديولوجية ، وهذه محاولة فاشلة ، وقد عرض البحث هذه المحاولة ، وتعقبها بالنقد والتفنيد .

English research summary:

The term "ideology" is one of the reformers of contemporary philosophy. This term appeared in its first environment to denote (the science of ideas) and the first to use it (Dosto de Tracy). However, this term witnessed later changes and transformations. False, deceit, and exclusion of metaphase.

Thus, ideology shifted from a mere term to a philosophical tendency that was influenced by many elements of other philosophies: egogoodism, Marxism, pragmatism, and logical position.

Some ideologues have derided it as an alternative to religion in the Western world. In our Islamic world, some advocates of modernity have tried to introduce ideologies into ideological systems. This is a failed attempt. The research presented this attempt, followed by criticism and refutation.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه :

أما بعد :

فإن من أهم خصائص الفلسفة التطور المستمر ، والقدرة على اختراع المصطلحات ، وكذا تطويعها ، واستخدامها في معانٍ جديدة ، وفي ظل التصارع الفكري المستمر ، تنتهي كيانات فلسفية ، وتقوم كيانات أخري ، تندثر مصطلحات ، وتُستحدث مصطلحات جديدة ، وهذا التزاحم الفكري ، وذلكم البحر الخِضَمُّ من الأفكار . والذي لا تقل شراسة صراعاته الفكرية ، عن شراسة أمواج البحار الغاضبة . يجمع بين الصالح والطالح من الأفكار ، وبين صحيح الآراء وسقيمها .

ومن المصطلحات التي أنتجتها الفلسفة المعاصرة ، وبرزت على الساحة بقوة في الفكر الحداثي في العالم العربي والإسلامي : مصطلح (الأيديولوجيا) والذي استخدمه أنصاره سلاحًا لإدانة الأفكار ، و تعالت أصواتهم بالدعوة إلى إدخال الدين عامة ، والعقائد خاصة ضمن المنظومات الأيديولوجية ، وقد عُرفت هذه الدعوى بـ (أدلجة الدين) .

ومن باب الإيهام والتلبيس صُدِّرت هذه الدعوى . ونحوها من الدعوات الغريبة عن روح الإسلام . إلى المجتمع تحت مسمى الاجتهاد ، والتجديد ، والتنوير ، والحداثة ، وغير ذلك من الشعارات البراقة التي انخدع بها السُذَّج وأنصاف المثقفين .

لذا رأيت من واجبي . كابن من أبناء قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف . أن أتناول أمثال هذه النزعات دراسةً ونقدًا ؛ من أجل ذلك سيكون اهتمامي الأول في هذا البحث هو التركيز على البعد الفلسفي لهذا المصطلح، ثم بعد ذلك أتناول دعوى تحويل العقائد . خاصة . إلى أيديولوجيا ، وذلك لعدة أسباب:

أ . أن فلسفة الأيديولوجيا من الفلسفات الحادثة ، والتي تقف من العقائد خاصة، ومن ميتافزيقا الأديان عمومًا موقفًا سلبيًا .

ب . أن مصطلح الأيديولوجيا . بما يتضمنه من معانٍ سلبية : كتشويه الواقع ، والخداع، التزييف . يُستخدم في أغلب الأحوال باعتباره سلاحًا لإدانة أو انتقاد مجموعة الأفكار والقيم العقائدية المخالفة.

ج . أن مصطلح (الأيديولوجيا) له مرجعيات فلسفية لها مواقف سلبية من قضايا العقيدة الدينية عمومًا ، ومن قضايا العقيدة الإسلامية بصفة خاصة : كالوجودية ، والماركسية ، والوضعية المنطقية ، والبراجماتية ، وفلسفات الحداثة .

د . لما كان الحكم على الشيء فرعًا عن تصوره لزم الإلمام بمصطلح الأيديولوجيا فلسفيًا ليتسنى بعد ذلك مقارنة فلسفة الأيديولوجيا بالدين ، ومن ثَّم نتمكن من الحكم على تجربة (أدلجة) الدين في جانبه العقدي .

هـ . أن العقائد هي أساس الدين ؛ ولذا وجب التصدي لأي محاولة لإخضاعها لمناهج الحداثيين المُغْرِضَة ، أو لتطبيق نظرياتهم الهدَّامة عليها .

أما عن المنهج المتبع في هذا البحث : فسوف أتبع فيه منهجين مختلفين :

١. المنهج الوصفي في عرض مفاهيم الأيديولوجيا ، وتاريخ ظهورها ، وتطوراتها الدلالية .

٢ . المنهج النقدي وذلك في مناقشة دعوى أدلجة العقائد .

ويتكون هذا البحث من مقدمة وستة مباحث وخاتمة ، وبيانها كما يلي:

المقدمة : وفيها تمهيد لموضوع البحث ، وبيان لأسباب دراسته ، والمنهج المتبع فيه ، وعرض لأهم جزئياته .

المبحث الأول : إطلالات على مفهوم الأيديولوجيا.

المبحث الثاني : ظهور فلسفة الأيديولوجيا .

المبحث الثالث : المؤثرات الفلسفية في فلسفة الأيديولوجيا .

المبحث الرابع : الأيديولوجيا والدين .

المبحث الخامس : هل يمكن اعتبار الإسلام أيديولوجيا ؟

المبحث السادس : نقد دعوى أدلجة العقائد

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات .

وقد ألحقت بالبحث ثبتًا بالمصادر والمراجع ، وفهرسًا للموضوعات .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

المبحث الأول : إطلالات على مفهوم الأيديولوجيا .

أولًا : الأصل اللغوي لكلمة (أيديولوجيا)

كلمة (الأيديولوجيا) ليست من كلمات اللغة العربية ، بل هي لفظة دخيلة عليها ، ويرى د/ عبد الله العروي أن كلمة (أيديولوجيا) دخيلة على جميع اللغات الحية ، وظهرت هذه الكلمة أول ما ظهرت في اللغة الفرنسية ، وهي تعني لغويًا في أصلها الفرنسي : علم الأفكار ؛ لأن كلمة (idéo) تعني: الفكرة ، وكلمة (logie) تعني : العلم ، لكن هذه الكلمة لم تحتفظ بهذا المعنى، بل انتقلت إلى اللغة الألمانية ، واستعملها الألمان بمعنى المنهج والطريقة ، ثم رجعت الكلمة إلى لغتها الأصلية ، وأصبحت دخيلة فيها ، فليس من الغريب بعد هذه التحولات الدلالية للكلمة أن يعجز عن ترجمتها فلاسفة العرب والمسلمين في العصر الحديث بكيفية مرضية .[١]

كما أن الكلمات العربية التي يمكن أن تكون مرادفة لهذه الكلمة كألفاظ : منظومة فكرية ، عقيدة ، فكرة ذهنية ، لا تعبر عن معنى الأيديولوجيا الذي قصده واضعوها ؛ ولذا اقترح د/ عبد الله العروي أن تُعرَّب هذه الكلمة ، وتنقل إلى قالب من قوالب الصرف العربي ، فيقال في مفردها : أدلوجة على وزن أفعولة ، وتُصَرَّف الكلمة وفقًا لقواعد اللغة العربية ، فيقال في جمعها : أداليج، على وزن أفاعيل ، وأدلوجات ، على وزن أفعولات ، و الفعل منها : أدلج إدلاجًا ، و يُنسب إليها فيقال : أدلوجي للمفرد ، وأدلوجيون للجمع .

وهكذا تصير الكلمة معربة ، وتجري عليها قواعد الصرف العربي ، وبعد هذا التعريب اللفظِّي للكلمة ، تُعرَّبُ الكلمة من جهة المعنى ، فيكون معناها :

---

(١) راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ٩ ، د/ عبد الله العروي ، طبعة المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب . بيروت ، لبنان ، الطبعة الثامنة ، عام ٢٠١٢م ، والأيديولوجيا بين الحقيقة والزيف ، إدريس هاني صـ ٢٢١ (بحث بمجلة عالم الفكر، العدد ٣ ، المجلد ٣٦ ، يناير . مارس ٢٠٠٨م) . صادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، دولة الكويت .

مجموعة القيم ، والأخلاق ، والأهداف ، التي يُنْوَى تحقيقُها على المدى القريب، أو البعيد . (١)

وهذا النحت اللغوي الذي أجراه د/ عبد الله العروي على الكلمة وصفه د/ عبد الوهاب المسيري بالجرْس القبيح ، ورأى بدلًا من ذلك أنه بالإمكان ترجمة المصطلح إلى كلمة (قول) والتي تعني: رأيًا ، أو معتقدًا. (٢)

لكن مع هذه المحاولات لإلحاق الكلمة باللغة العربية تعريبًا أو ترجمة لم تلقْ الكلمة المعربة أو المترجمة رواجًا أو شهرة في العالم العربي والإسلامي كالذي لقيه أصلها ، فقد أُستعملت كلمة (أيديويولوجيا) في أوساطنا الثقافية للتعبير عن الطريقة والمنهج الفكري الخاص .

وكما اختلف الباحثون في ترجمة الكلمة أو تعريبها اختلفوا في وصف فلسفة الأيديولوجيا :

فمنهم من نظر إليها باعتبارها فلسفة إيجابية ؛ حيث إنها تتمحور حول الإنسان ، كما أنها تعبر عن الرؤية الواضحة ، والأهداف المحددة ، والطريقة المنهجية ؛ ولذا فإن الفرد الذي لا يملك أيديولوجيا ذو فكر عشوائي غير منظم، والمؤسسة التي لا تملك أيديولوجيا هي مؤسسة انتهازية ، لا يهمها إلا القوة والتسلط . (٣)

ومنهم من رأى أن كلمة الأيديولوجيا تنطوي على معنىً سلبي ؛ لأنها تقتضي تطويع الواقع للفكر، أو بعبارة أخرى : الشخص صاحب الأيديولوجيا المعينة ينظر للأشياء ، ويزن الأمور وفقًا لإيديولوجيته الخاصة ؛ ولذا نراه يؤول النصوص ، ويُوَجِّه الأدلة ، ويقرأ الأحداث وفقًا لما يعتقد أنه الحق ؛

(١) راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ٩ .

(٢) راجع : في الأيديولوجيا والقول ، د/ عبد الوهاب المسيري (مقال بموقع الجزيرة نت الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٨/٤/١ م)

(٣) ويمثل هذا الاتجاه : المفكر الإيراني (علي شريعتي ١٩٣٣ . ١٩٧٧م) ، والدكتور المصري / حسن حنفي ، وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث الأخير من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى .

ولهذه الذاتية المفرطة نظر علماء الطبيعة ، والرياضة ، وكل علم تحكمه قواعد ثابتة إلى الأيديولوجيا باعتبارها صورة من صور المراهقة الفكرية . (١)

وفيما أرى : أن كلمة أيديولوجيا تخطت ، حدود اللغات ، ولم تكن فقط مجرد لفظة لغوية تنتمي إلى هذه اللغة أو تلك ، بل صارت تعبر عن فلسفة وليدة ، تمخضت عنها عدة أفكار مختلفة ، والأفكار الفلسفية ، لا تقيدها حدود اللغات ، ومن هنا يمكن القول بأنه إن كان البحث في أصل كلمة أيديولوجيا مهمًا ، فالبحث الأهم هو ضبط المعنى الفلسفي الذي تشير إليه الكلمة .

ثانيًا : مصطلح الأيديولوجيا وغموض المفهوم :

يعتبر مفهوم الأيديولوجيا من جملة المفاهيم الغامضة ، كما أن هذا الاصطلاح شهد تطورات وتحولات ومتغيرات ؛ ومن ثَمَّ فقد اختلفت كلمة الباحثين المهتمين بالحداثيات في هذا المصطلح إيجابًا وسلبًا . (٢)

من أجل ذلك تعددت مفاهيم (الأيديولوجيا) تعددًا يجعل وضع تعريف منضبط لها أمرًا بعيد المنال ، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ . السبب الأول : الصعوبة الذاتية للمفهوم .

مفهوم الأيديولوجيا فكرة فلسفية ، والأفكار الفلسفية تتسم بالفردية ، ولا تخضع لمعايير موضوعية ، أو لقواعد ثابتة ، بل تتغير المفاهيم الفلسفية تبعًا لمذهب كل فيلسوف ، كذلك تتغير وفقًا لتغير الزمان ، والمكان ، والظروف ، والسمات الغالبة على كل عصر ؛ فإن الفلسفة ليست كالعلوم الطبيعية ، قياسية موضوعية في دلالاتها ، لا مجال للرأي فيها ؛ وإنما هي ذاتية ، تخضع لنسبية المنظور الفردي والاجتماعي، تحتمل التأويل ، وتخضع

(١) ويمثل هذا الاتجاه في الغرب ويليام لابيير ، وفي الشرق أكثر المفكرين من المسلمين ومن غيرهم . راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ١٠ .

(٢) راجع : الأيديولوجيا في تطورات دلالية ، مازن المطوري ، بحث بمجلة الاستغراب الصادرة عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، بيروت ، لبنان ، صـ ٢٢٠ ، العدد السادس ٢٠١٧م .

لواقعها، والفلسفة . كذلك . هي الخلاصة الروحية لعصرها ، وبصفتها فلسفة العالم المعاصر تكون منظومة معارف خاصة ، تعبِّر عن مكانة الإنسان في العالم ، وعن موقفه من العالم المحيط ، وتسعي إلى كشف أسرار الكون ، وما يلازمه من سنن وقوانين . (١)

٢ . السبب الثاني : اتساع مدلول كلمة (أيديولوجيا) اتساعًا بالغًا .

من أسباب صعوبة وضع تعريف جامع مانع لمصطلح الأيديولوجيا : سعة مدلول الكلمة في المعاجم الأوربية ، وكثرة معانيها ، وتنوع استعمالاتها ، وتعدد مجالاتها التطبيقية : فالأيديولوجيا مصطلح معروف في عالم السياسة ، وفي عالم الفلسفة والفكر ، وفي مجال الدراسات الاجتماعية والاقتصادية ، فهذه المفردة . بحق . هي مفردة سيَّالة الدلالة ، متعددة الاستعمالات ، وبلغ من اتساع مفهوم الأيديولوجيا أنها أصبحت مرادفة للثقافة بمعناها الواسع ، الذي يشمل كل مظاهر النشاط والإنتاج الفكري في المجتمع ، وقد أدى هذا الاتساع والتنوع إلى اختلاف يصل إلى حد التضارب . (٢)

ومع هذا الاتساع الدلالي لمفهوم الأيديولوجيا إلا أن كل معنىً من معانيها مرتبطٌ بمجال معين ، وبوظيفة محددة ، ويقود حتمًا إلى نظرية ، ويخلق نوعًا من التفكير ، فحينما تُستعمل الأيديولوجيا في المجال السياسي يتحول معناها إلى قناع تلبسه الطبقة الحاكمة لاستنزاف المحكومين ، وكذلك تخلق أحكامًا وضعية نابعة من المصلحة ، وتقود إلى نظرية نسبية القيم، والأيديولوجيا حينما تستعمل في المجال الفلسفي تتضمن أحكامًا حول الحقيقة الفلسفية ، ويقود هذا الاستعمال حتمًا إلى النظرية الجدلية . (٣)

(١) راجع : أسس الفلسفة ، راكيتوف ، صـ ٩ ، ترجمة : موفق الدليمي ، ط دار التقدم ، موسكو .
(٢) راجع : موسوعة لالاند الفلسفية ٢/ ٦١١ ، تأليف : أندريه لالاند ، تعريب : خليل أحمد خليل ، ط منشورات عويدات ، بيروت . باريس ، ط ثانية ٢٠٠١م ، والأيديولوجيا في تطورات دلالية ، مازن المطوري ، صـ٢٢١
(٣) راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ١٤ .

وهذه السعة الدلالية تدعونا إلى التمييز بين نوعين من الأيديولوجيات :

أ . الأيديولوجيا الكلية العامة ، وهي المرادفة للثقافة ، أو للمنهج عمومًا .

ب . الأيديولوجيا الجزئية الخاصة ، وهي : النسق الفكري الخاص الذي يشمل مجموعة من القيم والأفكار في مجالات متنوعة : كالسياسة ، وعلم الاجتماع ، والفلسفة .

وبهذا التمييز يحدث الفصل بين الأيديولوجيا كطريقة عامة في التفكير . سواء أكانت صحيحة أم خاطئة- وبين الأيديولوجيا كمصطلح فلسفي متميز . (١)

وحينما يعرض الباحث المجالات المختلفة التي تستعمل فيها الإيديولوجيا ، فإن هدفه ليس مجرد السرد والحشد ، وإنما هدفه هو التوصل إلى قاعدة لاستعمال مفهوم الأيديولوجيا بكيفية مرضية ؛ حتى لا يقع في تِيهٍ من التساؤلات والاعتراضات التي لا محل لها .

٣. السبب الثالث : الغموض وعدم التحديد :

أحاط بمصطلح الأيديولوجيا الغموض وعدم التحديد ؛ فهي كلمة مختلطة الدلالة في لغتها الأصلية ، كما أنها تعني الشئ ونقيضه :

فمن معانيها : أنها نسق من الأفكار والمعتقدات يفسر الواقع تفسيرًا صادقًا ، وفي الوقت نفسه تعني : ذلكم النسق الفكري الذي يهدف إلى تشويه الواقع ، أو هي : نسق فلسفي يُزَيِّفُ واقع الإنسان ، ويُعْمِي الإنسان عن رؤية واقعه .

كذلك : الأيديولوجيا في بعض معانيها تنبع من الماضي ، وتحنُّ إليه، وفي البعض الآخر تهمل الماضي ، وتعكس الحاضر ، وفي معنًى ثالث تُبشِّر الأيديولوجيا بالمستقبل وبالمثل الأعلى ، وفي معنًى رابع تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل .

(١) راجع : الأيديولوجيا بين الحقيقة والزيف صـ ٢٣٣ ، إدريس هاني .

وهكذا : فإن كلمة أيديولوجيا قد تعني : الشيء وعكسه ، وبوسعها أن تحمل معاني مختلفة على حسب منظور المتكلم ، فالماركسي يستعملها للدلالة على رؤية الطبقة الحاكمة ، وعالم الاجتماع يستعملها للدلالة على النظام الضابط للمجتمع ، والفيلسوف يستخدمها للدلالة على الفكر المثالي ، فالأيديولوجيا هي حالة مركبة من ثنائيات متناقضة . (١)

٤. السبب الرابع : ارتباط الأيديولوجيا بذات الإنسان .

ترتبط فلسفة الأيديولوجيا بماهية الإنسان وغريزته ، فالأيديولوجيا . باعتبارها انتماءً وولاءً فكريًا . مرتبطة بغريزة الانتماء والولاء لدى الإنسان ، سواء أكان ولاءً لجماعة أو لفكرة أو لشخصية أو غير ذلك .

وكذلك الأيديولوجيا . بوصفها علم الأفكار . ليست مفهومًا مستقلًا عن ماهية الإنسان ، وبما أن الإنسان كائن مفكر ؛ فإن ما يبحث في الفكر هو أدنى إلى قوته الناطقة منه إلى كونه مجرد مفهومٍ أُدرج في العلوم الإنسانية كجملة المفاهيم .

وبهذا يمكن القول بأن الأيديولوجيا . كعلم للأفكار. غريزة كغريزة التفكير والتفلسف لدى الإنسان ، بل هي بعينها فلسفة ، ومجالاتها المتعددة حقول خصبة للتفلسف ، ولكن الأيديولوجيا فلسفة متميزة ؛ لأنها تتحرك في سماء كل العلوم ؛ لأنها علم الفكر الإنساني ، والعلوم ما هي إلا ثمرات للفكر الإنساني ، وارتباط الأيديولوجيا بماهية الإنسان وغرائزه أضفى على مفهوم الأيديولوجيا صعوبةً وغموضًا ؛ نظرًا لصعوبة فهم ما يتعلق بالنفس الإنسانية ودقائقها وأسرارها (٢).

(١) راجع : مقدمة جورج تيلور لكتاب محاضرات في الأيديولوجيا واليوتيوبيا لـ (كارل مانهايم) صـ ٣١ ، ترجمة : فلاح رحيم ، ط دار الكتاب الجديد المتحدة ، وفي الأيديولوجيا والقول ، د/ عبد الوهاب المسيري (مقال بموقع الجزيرة نت الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٨/٤/١ م)

(٢) راجع : الأيديولوجيا غريزة المتحيز وفلسفته صـ ٨ ، ٩ ، د/ محمود حيدر ، مجلة الاستغراب (صادرة عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية . بيروت . لبنان) ، العدد السادس ، ٢٠١٧ م .

للأسباب السابقة كانت الإشكالية قائمة فيما يخص تعريف مصطلح الأيديولوجيا ؛ لذا عند عرض مفهومها لا سبيل لتجاوز هذه الإشكالية ، ولكن يمكننا أن نستعرض بعض تعريفات الأيديولوجيا لنتمكن من إبراز المعنى المشترك بينها. (١)

ثالثًا: بعض المفاهيم الاصطلاحية للأيديولوجيا.

إذا تمهد ما سبق من بيان الصعوبة التي تكتنف مفهوم الأيديولوجيا نعرض . فيما يلي . بعض تعريفاتها الاصطلاحية في مجال الفلسفة والفكر :

المفهوم الأول : الأيديولوجيا هي وجود مجموعة من الأفكار، والأنساق المعرفية المحررة من التقليد ، والأحكام المسبقة ، والمُطَهَّرَةِ من تأثيرات سلطة ما .

ويتضح من خلال هذا المفهوم أن الأيديولوجيا لها جانبان :

فهي في جانبها الأول : فلسفة وصفية ؛ حيث يظن صاحب (الأدلوجة) أنها مطابقة للواقع ، فيصف فكرته بأمانة وموضوعية .

وفي جانبها الثاني : هي فلسفة نقدية ؛ ففي هذا المستوى يحكم صاحب (الأدلوجة) عليها ، وهل هي مطابقة للواقع صالحة له أم لا ، وهذه الظاهرة النقدية هي أهم ما يميز الأيديولوجيا ، وبدونها تصبح الكلمة فارغة بلا مضمون . (٢)

ومن خلال هذا التعريف نلحظ ارتباط مفهوم الأيديولوجيا بالموقف النقدي ، وبالتالي فإن من يبحث عن الحقائق المطلقة ، ويعتقد أن الإنسان قادرٌ على إدراكها يرفض الأيديولوجيا ؛ لأنه يرى في تطبيقها على نسقه الفكري حكمًا بنسبيته ، بينما يعتقد هو أنه حق مطلق .

المفهوم الثاني : الأيديولوجيا هي رفض الاكتفاء بالجانب النظري في المعرفة ، بل هي تطلع دؤوب مستمر إلى ممارسة دور حاسم في تعيين طابع

(١) راجع : هذا ما يعنيه مفهوم الأيديولوجيا ، يوسف محمد (مقال على موقع إضاءات الإلكتروني)
(٢) راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ١٢ .

الحياة المجتمعية ، والتأثير على المجتمع .

فالأيديولوجيا هي إطار عقدي فكري موجه ، يرتبط بالفرد ، ويحكم علاقته بالمجتمع ، فالأيديولوجيا نظرية وعملية معًا ، فهي في الأصل نسق معرفي نظري مثالي ، تقوم على الإيمان بمجموعة من الأفكار المعرفية ، وتصرُّ على تطبيقها ، فالأيديولوجيا ليست مجرد فكرة مثالية نظرية محضة ، بل هي فكرة ونسق معرفي متكامل ، قابل للتطبيق .

المفهوم الثالث : الأيديولوجيا هي علم الأفكار ، ويقصد بالأفكار هنا : الأفكار النظرية القابلة للتطبيق عمليًا ، وبالتالي فهي تطرح النظر الميتافزيقي جانبًا ، وتقصر همها على دراسة المعاني والظواهر النفسية لتبين خصائصها وقوانينها لاكتشاف أصلها ، فالأيديولوجيا ليست (يوتوبيا) مثالية مفرطة ، وإنما هي تصورات معيارية لما ينبغي أن يكون . [١]

وأول من استخدم الأيديولوجيا بهذا المفهوم الفيلسوف الفرنسي (دست تراسي ١٧٥٥ . ١٨٣٦ م) (Destutt Tracy) ، وسيأتي تفصيل ذلك . إن شاء الله تعالى .

المفهوم الرابع : الأيديولوجيا هي اتجاه فكري ينصبُّ على دراسة مدى صحة أو خطأ الأفكار التي تُبنى منها النظريات والفرضيات العلمية ، والفلسفات النظرية .

فالأيديولوجيا وفقًا لهذا المفهوم معنية بدراسة أصول الأفكار وتطورها ، وقد ظهر هذا المفهوم عند رواد فلسفة الأيديولوجيا من أمثال : (كوندياك١٧١٤. ١٧٨٠م) (Condillac) ، و (كابانيس١٧٥٧. ١٨٠٨ م) (Cabanis)،و(مين دي بيران١٧٦٦ . ١٨٢٤م)(Maine De Biran) .[٢]

وهؤلاء الفلاسفة هم الذين أسسوا ما يُسمى بـ (فلسفة الأنوار) في

(١) راجع : الأيديولوجية صـ ٤٦ ، تأليف : ديفيد هوكس ، ترجمة : إبراهيم فتحي ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة ، عام ٢٠٠٠م ، والمعجم الفلسفي صـ ١٣٥ ، د/ مراد وهبة ، طبعة الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠١٦ م .

(٢) راجع : مشكلة الفلسفة صـ٢٤١ ، د/ زكريا إبراهيم ، ط مكتبة مصر بالفجالة ، عام ١٩٧١م .

فرنسا، وفلسفة الأنوار تقوم على تشييد الحياة والفكر على دعائم العلم المادي فقط ، ومقاومة الميتافزيقا ، واعتبارها مرحلة طفولة للإنسانية ؛ ولذا كان من المنطقي أن يكون الاصطلاح المنضبط لكلمة (أيديولوجيا) وفقًا لنظرة فلاسفة مدرسة الأنوار : هو علم الأفكار الطبيعية المادية ذات الصبغة العملية ، وذات الطبيعة الاجتماعية ، وذات النزعة الإنسانية .

ومن خلال هذا المفهوم نلحظ الاتجاه اللاديني الذي ينطوي عليه مفهوم الأيديولوجيا ؛ ولهذا كانت عملية (الأدلجة) تعني : وضع كل شيء في الإطار التجريبي ، وإهمال الماورائيات ، وإنكار عالم الغيب ، واعتبار الميتافزيقا خرافة .

* وبعد عرض التعريفات السابقة للأيديولوجيا يمكننا أن نلحظ الخيط الذي يربط بين التعريفات السابقة ، والذي يتمثل في الطابع العلمي التجريبي الذي يعتمد على الأفكار الواقعية ، ويبتعد عن ما يجانب الواقع من تأملات فلسفية مثالية ، أو نزوع غيبي للأفكار والمعتقدات التي فصلت الإنسان عن الحياة الواقعية ، وبهذا صارت الأيديولوجيا دعوة صريحة إلى حرية التفكير ، والتحرر من سلطة الميتافزيقا ، والتي فرضت كقالب جاهز ، ومنهج صارم غير قابل للتخطي [١].

" وبهذا يمكن أن نصوغ الأيديولوجيا على أنها : نتاج فكري معرفي شامل ، ينطلق من الفرد ، الذي يمثل اللبنة الأساس في تشكيل الفكر الاجتماعي ، وتتأسس على خلفيات بلورتها جدلية التاريخ والواقع ، والأساس فيها أنها تتجسد عبر آثار النشاطات الإنسانية ، والممارسات الفعلية في الواقع " [٢].

(١) راجع الأيديولوجيا ، الخطاب ، النص ، نحو مقاربة مفاهمية ، أ/ عموري السعيد صـ ١٣٩ ، مجلة الأثر ، جامعة عبد الرحمن ميرة . بجاية . الجزائر ، العدد الثامن عشر ، عام ٢٠١٣م .
(٢) الأيديولوجيا ، الخطاب ، النص ، نحو مقاربة مفاهمية ، أ/ عموري السعيد صـ ١٤٢ .

رابعًا : سمات الأيديولوجيا :

بعد عرض بعض المفاهيم الفلسفية للأيديولوجيا يمكننا بالتأمل فيها استخلاص أهم سمات الأيديولوجيا باعتبارها منظومة فكرية فلسفية ، ومنها ما يلي :

أ . **الدينامية** : وتعني التطور المستمر ، فالأيديولوجيا . كمنظومة فكرية . متطورة دائمًا ، غير ثابتة ثباتًا مطلقًا ، وإنما تتمتع بخاصية الحراك على الدوام ، تشهد على دورات جديدة من النمو والتحول تبعًا للظروف الاجتماعية المتغيرة دائمًا ، وتبعًا . كذلك . لشخصية الإنسان المتقلبة ، فالأيديولوجيا لا يُنظر إليها كنسق ثابت ، وإنما كدينامية متطورة على الدوام ؛ ولذا كانت الأيديولوجيا من الأنساق الفكرية التي لا تعرف الكلمة الأخيرة ، و ذلك لتلاقح الأفكار ، وتداخلها فيما بينها .[١]

ب . **التنوع** : فالأيديولوجيا اتجاه فلسفي متنوع ، يجمع بين الطابع الفردي والطابع الاجتماعي ؛ ولذا فالأيديولوجيا لها وجهان بارزان :

١ . وجه سيكولوجي فردي : وهو ارتباط المعتقد الأيديولوجي بالبنية النفسية لصاحبه ؛ إذ إن هذه المعتقدات تصبح بمثابة الدرع الحامي للأنا . أي : للشخص الفرد . من مظاهر القلق والتوتر الناتج عن التكذيبات التي يحملها الواقع لبعض أفكاره .[٢]

٢ . وجه سيسولوجي اجتماعي : ويتمثل في التزام الجماعة بالأيديولوجيا الفكرية التي تضبط تصرفاتهم ، وتحافظ على الوحدة الفكرية للجماعة ، وتحميها من مظاهر التشكيك أو المغالطة.

كذلك : الأيديولوجيا متعددة متنوعة بتعدد وتنوع أحوال فاعليها ، وينعكس هذا التعدد والتنوع على لغة الشخص (المؤدلَج) ؛ فإن لغته زئبقية

(١) راجع : الأيديولوجيا غريزة المتحيز وفلسفته صـ ١١ ، د/ محمود مراد .

(٢) راجع : الأيديولوجيا ، نحو نظرة تكاملية صـ ١٧٣ ، د/ محمد سبيلا ، ط أولى ١٩٩٢م ، المركز الثقافي ، بيروت .

لا تُضبط بيسر ، ولا يمكن وقفها على لون معين ؛ فإنها كلمات تترجم عن أحوال (المؤدلَج) ، وتعكس طبائعه ورغباته ، وتصطبغ . كذلك . لغته بالصبغة الرمادية التي تحتمل كثرة هائلة من المعاني . (١)

ج . **الميل إلى العقل الجمعي** : بالرغم من أن الأيديولوجيا تعطي الفرد قيمة ، وتعترف بمركزيته ، إلا أنها تقدس الجماعة ، بل الأيديولوجيا شكل من أشكال ارتماء الفرد في أحضان الجماعة ، وتخليه تمامًا عن حسه النقدي، وعن فكره وتوجهه الخاص لصالح قيم وأفكار مصدرها الجماعة ، وحينما يسلم الفرد قياده للآخرين ، ويضع نفسه رهن الأفكار المتداولة ، فهو يضع نفسه في الدائرة الأيديولوجية ، ويتخلى عن حق أساسي من حقوقه ، وهو حق التفكير الشخصي . (٢)

(١) راجع : الأيديولوجيا غريزة المتحيز وفلسفته صـ ١٤ ، د/ محمود مراد .
(٢) راجع : الأيديولوجيا ، نحو نظرة تكاملية صـ ١٧٥ ، د/ محمد سبيلا .

المبحث الثاني : ظهور فلسفة الأيديولوجيا .

أولًا : الخلفية التاريخية لفلسفة الأيديولوجيا :

إذا أردنا أن نتعرف على تاريخ الأيديولوجيا فعلينا أن نتتبع بإيجاز جذور الفكرة الأيديولوجية في الماضي ، وهذا يدعونا إلى الحديث الموجز عن عصر ما قبل الأيديولوجيا فنقول :

في العصور الفلسفية القديمة في أوربا كان يسيطر على الإنسان التفكر الطبيعي ، ففسر الظواهر كلها تفسيرًا طبيعيًا بما في ذلك نشأة الكون ، فبعضهم يرى أن الكون أصله الماء ، أو الهواء ، أو التراب ، أو النار ، أو العناصر الأربعة مجتمعة . (١)

ولما استقل الإنسان نسبيًا عن هذا الفكر الطبيعي الموغل في المادية ، أدرك نوعًا من الاختلاف ، بل والتناقض في بعض الأحوال بين الفكر وبين الواقع ، وقد حاول المفكرون في شتى العصور تقديم تفسيرات ، واختراع نظريات لتفسير هذا التناقض تفسيرًا مقبولًا :

ففي الفلسفة اليونانية ظهرت فكرة وحدة الكون ، أو فكرة (عالم المُثل) وفقًا للتعبير الأفلاطوني ، فالعالم الحسي صورة وانعكاس لعالم آخر معنوي ، وهو عالم المُثل والأفكار ، والمنطق البشري صورة لمنطق الكون وسيره . (٢)

وهروبًا من السفسطة ومن إنكار الحقائق التي نادى بها الشكاك يؤسس (سقراط٤٦٩ . ٣٩٩ق.م) وأتباعه لمسألة ضبط اللغة ، والقول بثبات الواقع ، وكونه حقيقة لا تُنكر ، وأن الكون كله متجانس ، الكمال والجمال عنوانه ، وأن الإنسان هو أشرف الموجودات ، وهو الذي يعكس كمال الكون وجماله .(٣)

---

(١) راجع : حكمة الغرب ٢٧/١ ، تأليف : برتراند رسل ، ترجمة فؤاد زكريا ، طبعة عالم المعرفة ، الكويت ، عام ٢٠٠٩م ، وتاريخ الفلسفة اليونانية صـ ٢٥ وما بعدها ، يوسف كرم ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ، عام ٢٠١٧م .

(٢) راجع : تاريخ الفلسفة اليونانية صـ ٨٩ ، يوسف كرم .

(٣) راجع : تاريخ الفلسفة اليونانية صـ ٦٦ ، يوسف كرم .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن الإنسان إذا فكر أو قال أو فعل ، فلابد أن يأتي سلوكه كله مطابقًا للواقع ، وإذا حدث اختلاف بين الواقع وبين الفكر الإنساني ، فهو ليس اختلافًا حقيقيًا ، وإنما هو خلاف ظاهري يرجع إلى خلل في العقل ، أو عطل في الحواس ، أو قوة خارجية تتعمد إضلاله ؛ ولهذا فإن وجدان الإنسان لا يعكس الواقع بوضوح. (١)

وفي العصور الوسطى في أوربا ساد الجهل والتخلف والتسلط من أولي الأمر ، وقد عُرفت هذه الحقبة بعصور الظلام ، وفي هذا العصر لم يكن للإنسان الحق في التفكير أو إبداء الرأي في أي مسألة ، ومن خالف ذلك حقَّ عليه العذاب الشديد .

أما في المجتمع الإسلامي فقد خاض المسلمون تجربة مفارقة الفكر للواقع ، و ذلك من خلال فكرة الغلو التأويلي ، أو ما يُعرف بـ (التأويل الباطني) التي ظهرت عند الباطنية ، ولقد تصدى لهذا التطرف التأويلي عند الباطنية كثير من العلماء ، على رأسهم الإمام الغزالي (المتوفى عام ٥٠٥ هـ)، والذي خصَّهم بمؤلف من أمتع مؤلفاته ، وهو كتاب (فضائح الباطنية)(٢)

وفي العصر الحديث في أوربا احتدم الصراع بين الواقع مُمَثلًا في الكنيسة ، وبين الفكر مُمَثلًا في الفلسفة ، وشنَّ كلٌ منهما الغارة على الآخر ، واعتبر كلاهما أن نزاع الآخر معه لا يعود إلى قضية العلم ، وإنما يعود إلى سبب غير أخلاقي .

(١) راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ٢١ .

(٢) راجع : فضائح الباطنية ، تأليف : حجة الإسلام أبي حامد الغزالي صـ ٣٧ ، تحقيق : إبراهيم بسيوني نور الدين ، ط الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠٩م ، والشيعة بين الغلو والاعتدال ص٧٢ ، أد/محمد الأنور حامد عيسى ، ط مكتبة الإيمان ، القاهرة .

ولمزيد من التفصيل حول الباطنية ونشأتهم وعقائدهم ، ونقض أفكارهم راجع مع ما سبق : القرامطة ، تأليف : أبي الفرج بن الجوزي ، تحقيق : محمد الصباغ ، ط المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط خامسة عام ١٩٨١م ، والحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، عقائدها ، وحكم الإسلام فيها ، تأليف : د/ محمد أحمد الخطيب ، ط مكتبة الأقصى ، الأردن ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٨٦م .

فالفلاسفة والعلماء نظروا إلى الكنيسة على أنها سلطة ظَلمانية تدعو إلى تعطيل العقول ، وتعمل على إحلال الجهل محل العلم ، وتمارس إرهابًا ماديًا ومعنويًا قاسيًا على كل من عارضها من العلماء ، وإن كانت المعارضة مؤيدة بالبراهين والأدلة .

ومن جانب الكنيسة ترى أن تعاليمها ، والتي تنعتها بالدين هي منحة إلهية ، وأنه هو سر سعادة الإنسان وتقدمه ، وأن أي محاولة للثورة على تعاليم الكنيسة ردة وانحراف عن الصراط المستقيم ، وتنظر إلى الفلاسفة على أنهم آلة مسخرة في يد الشيطان يمثلون دورًا جديدًا في سلسلة المؤامرت التي دُبرت من قديم ضد مملكة المسيح .

في ظل هذا النزاع والصراع في بدايات العصر الحديث ، وصل التباعد بين الفكر والواقع إلى نقطة استحال معها إمكان الاتفاق ، أو التفاهم بين الطرفين . (١)

ثانيًا : بداية ظهور الأيديولوجيا :

من جراء عداء الكنيسة . في أوربا إبان العصور الوسطى . للعلماء والفلاسفة ظهر من الفلاسفة من حاول استحداث مناهج فكرية جديدة ، ومن أهمها المنهج التجريبي ، والذي أتمه وطوَّره (فرنسيس بيكون ١٥٦١ . ١٦٢٦م) (Francis Bacon) (٢)

وإذا كان (فرنسيس بيكون) وكثير من التجريبيين في ذلك العصر اهتموا بوضع آلية ومنهجية للتفكير السليم ، وإن كان للمذهب التجريبي أثره الإيجابي في إعلاء العلم التجريبي ، إلا أنه أدى إلى مادية مفرطة ، وفساد

(١) راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ٢٦ .

(٢) راجع : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ٧٥ ، تأليف : برتراند رسل ، ترجمة : د/ محمد فتحي الشنيطي ، ط الهيئة المصرية للكتاب ، عام ٢٠١١م ، و تاريخ الفلسفة الحديثة صـ ٤٨، يوسف كرم ، ط الهيئة العامة للكتاب ، ودراسات في الفلسفة الحديثة صـ٤٢ ، د/ محمود حمدي زقزوق ، مكتبة الأنجلو المصرية .

كبير يمسُّ كيان الإنسان ، فقد اعتبرت المناهج التجريبية المادية الإنسان مجرد ظاهرة طبيعية مثل بقية الظواهر الطبيعية ، لكنه ظاهرة أكثر تعقيدًا ؛ حيث كانت الظواهر الروحية في الإنسان مجرد تبديات وتمثلات لظواهر مادية في الإنسان ، فزال الامتياز الفطري للإنسان باعتباره كائنًا مركبًا من جسد وروح وبين غيره من الكائنات ، فصار الإنسان مجرد ظاهرة طبيعية ، وفقد بذلك كيانه العقلي والروحي ، وتحول سلوكه إلى مجرد حركات آلية .

انطلق المنهج التجريبي بما أعقبه من مادية مفرطة من إنجلترا ، ومنها إلي كافة أوربا ، وبخاصة فرنسا ، " فقد كان الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر صدي للفكر الإنجليزي ...فما إن أفاق من غمرات الثورة ، و رأى ما أعقبها من خراب مادي واضطراب معنوي وقلق اجتماعي حتى شرع في البناء ." (١)

وكرد فعل على هذا التطرف المادي توجهت جهود مفكري فرنسا في هذه المدة إلى البناء المعنوي والفكري ، ومحاولة استعادة القيم ، فظهر المذهب الروحي ، الذي هزم المادية هزيمة ماحقة ، وتلا ذلك ظهور فلسفة الأنوار . (٢)

وفي أحضان المذهب الروحي ظهرت فلسفة (المعنوية) . والتي عُرفت فيما بعد بـ (الأيديولوجيا)، وكان في طليعة الفلاسفة الذين مهدوا لها الفيلسوف التجريبي (كوندياك) ؛ فقد اهتم ببحث كيفية وآلية التفكير بقطع النظر عن كونه سليمًا أو لا ، ففتح بذلك باب البحث عن جميع المؤثرات في الفكر سواءً أكانت طبيعية أم إنسانية ، غير أنه كان يعتقد أن الإنسان منفعل لا فعل له ، وهو حاصل على الحياة مجردًا من كل ميلٍ ، وليس به أفكارٌ فطرية . كما ادعى (ديكارت ١٥٩٦ . ١٦٥٠م) (René Descartes)

(١) الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، صـ ٢٧٠ ، ط الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٨ م .
(٢) راجع : الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، صـ ٢٧٠ ، ومشكلة الفلسفة صـ ٢٤١ ، د/ زكريا إبراهيم ، والمذاهب الفلسفية المعاصرة صـ ٦٣ ، ٦٤ ، سماح رافع ، ط أولى مكتبة مدبولي ، عام ١٩٧٣م .

ومدرسته . ، وفكر الإنسان كله مستمد من الإحساس ، وكل أفكاره واردة إليه من الخارج . (١)

ولم تنزل أفكار (كوندياك) بردًا وسلامًا على أخلص أتباعه ، وهم (دست دي تراسي) و (كابانيس) و (مين دي بيران) ، فقد خالفوه في ذلك :

فذهب (كابانيس) إلي أن الإنسان يولد مزودًا بقوى فسيولوجية لها أثر في القوى النفسية ، وأن القوى الفسيولوجية في الإنسان تفسر سلوكه بما في ذلك التفكير ، فادعى كذلك أن الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء ، ومع هذه النزعة المادية أفسح (كابانيس) مكانًا للعلل الأولى اللامادية . (٢)

أما (تراسي) فقد خطا بالمذهب الروحي خطوة أخرى فقال بأن الإنسان يولد وبه قوة عقلية فكرية ، وهي قوة غريزية كسائر القوى الطبيعية ، وقد دعا إلى دراسة الفكر الإنساني فوضع مبادئ الفلسفة المعنوية ، أو علم الأفكار ، وقد أطلق (تراسي) على هذه الدراسة الجديدة اسم (الأيديولوجيا) في كتابه (تخطيط لعناصر الأيديولوجيا) ، والذي أصدره عام ١٨٠١م ، وهدفه من ذلك أن يحل مذهبه الجديد محل الميتافزيقا القديمة المدانة بسبب المطلقية المنسوبة إليها ، وقد ألف (تراسي) في مبادئ هذه النزعة الجديدة عدة مؤلفات من أشهرها : كتاب المعنوية ، وكتاب الأجرومية العامة ، وكتاب المنطق ، وكتاب الإرادة . (٣)

والسبب في اختيار (تراسي) لاسم (الأيديولوجيا) : أن لهذه اللفظة . في نظره . عدة مزايا :

---

(١) راجع الأيديولوجيا كما يراها مؤسسها ، مجلة الاستغراب صـ ٩٣ ، تأليف : ليليان موري ، ترجمة : د/ عماد أيوب .

(٢) راجع الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، صـ ٢٧١ .

(٣) راجع الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، صـ ٢٧٤ ، ومشكلة الفلسفة صـ ٢٤١ ، د/ زكريا إبراهيم ، ومفهوم الأيديولوجيا صـ ٢٨ ، والأيديولوجيا ، الكلمة ، الفكرة ، الشيء صـ ٤٠ ، تأليف : بيار ماشريه ، ترجمة : هدى الفقيه .

أ . أنها كلمة حكيمة للغاية ؛ لأنها لا تفترض شيئًا مشكوكًا فيه أو مجهولًا .

ب . أنها تشير إلى الهدف ، وهو تحليل الأفكار ، وتشير إلى الوسيلة ، وهي التفكير . (١)

ومن بعد كابانيس وتراسي جاء تليمذهما (مين دي بيران) ، وكان ذا عقلية ناقدة ، ومزاج قلق ، وقدرة فائقة على الاستبطان ، فقال بوجود قوة باطنية مختلفة عن الحواس الظاهرة ، وكتب رسالة في العادة بيَّن فيها أن للنفس قوى فعلية ، وليست نفس الإنسان مجرد منفعلة فقط ، وهو بذلك يردُّ على (كوندياك) ، ثمَّ رسالة أخرى في (تحليل الفكر) ، وبالرغم أن (بيران) سار على نهج (كابانيس) و(تراسي) إلا أنه تميز عنهما بإثبات الميتافزيقا والدين ، ولكنه عالجهما بشكل نفسي ، وبذلك أُعتبر (بيران) هو المؤسس لعلم النفس الديني . (٢)

وهكذا فقد كوَّن هؤلاء الثلاثة هذه النزعة الفكرية ، التي انبثقت من الفلسفة الروحية ، وقد أطلق (تراسي) على هذه النزعة المعنوية اسم (الأيديولوجيا) للدلالة على فلسفتهم التي اقتصرت على دراسة الأفكار والمعاني في حالة مثولها الواقعي بعيدًا عن الغيبيات ، وحاولت إقامة العلوم على أسس أنثروبولوجية ، وسيكولوجية ، وهذا ما يفسر الصبغة العلمية والمنهجية للأيديولوجيا ، وارتباطها بالنزعة المادية . (٣)

ثالثًا : التحولات الدلالية للأيديولوجيا :

لم يستقر مفهوم الأيديولوجيا على كونه علمًا للأفكار ، أو علمًا للعلم ؛ فبعد ميلاد فلسفة الأيديولوجيا بزمن قليل طرأت على الكلمة تحولات وتغيرات دلالية ، من أهمها :

(١) راجع الأيديولوجيا كما يراها مؤسسها صـ ٩٦ ، تأليف : ليليان موري ، ترجمة : د/ عماد أيوب

(٢) راجع الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، صـ ٢٧٤ .

(٣) راجع الأيديولوجيا ، الخطاب ، النص ، نحو مقاربة مفاهمية ، أ/ عموري السعيد صـ ١٣٨ ، والمعجم الفلسفي صـ ١٣٥ ، د/ مراد وهبة .

١ . استعمال الأيديولوجيا في مفاهيم سلبية :

انصرف لفظ الأيديولوجيا إلى معنى سلبي ينطوي على السخرية والتحقير ، فقد استعمل (نابليون بونابرت ١٧٦٩ . ١٨٢١م) Napoléon (Bonaparte) هذا اللفظ كمصطلح دال على معنى الجدل العقيم ، والتفكير الخيالي ، أو ما أطلق عليه اسم (الميتافزيقا المظلمة) ، وأطلق على معارضيه اسم (الأيديولوجيين) كنوع من التحقير . (١)

وقد كانت أساليب التحقير التي تعرضت لها الأيديولوجيا من الأسباب التي أدت إلى نقل مفهومها نقلة عكسية من الإيجاب إلى السلب ، فصارت فلسفة الأيديولوجيا تعني :الأفكار الوهمية ، والتأملات اللاواقعية ، ومن هنا كان الفكر الأيديولوجي سببًا مباشرًا في ظهور المذاهب النفعية ، والتي كانت بمثابة رد فعل على التفكير الأيديولوجي اللاواقعي . (٢)

٢ . إعادة ضبط مفهوم الأيديولوجيا :

وفي إطار التطور الدلالي لمفهوم الأيديولوجيا خضعت الأيديولوجيا لعملية إعادة ضبط وتأصيل لمفهومها عبر الفلسفة الماركسية ، فاستخدم (كارل ماركس ١٨١٨ . ١٨٨٣م) (Karl Marx) مصطلح الأيديولوجيا للإشارة إلى منظومة الأفكار التي يفهم الناس من خلالها عالمهم، ويؤكد على أن الأيديولوجيا والفكر يعتمدان على الظروف المعيشية والطبقة الاجتماعية للشخص؛ ولأن الطبقة الحاكمة تتصرف بوسائل الإنتاج المادي والفكري ؛ فإن الأيديولوجيا تُعبّر عن شكل وطبيعة الأفكار التي تعكس مصالح الطبقة

(١) راجع الأيديولوجيا واليوتيوبيا ، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة صـ ١٤٣ ، تأ ليف : كارل مانهايم ، ترجمة : د/ محمد رجا الديريني ، ط أولى ١٩٨٠م ، شركة المكتبات الكويتية ، ومشكلة الفلسفة صـ ٢٤٢م ، د/ زكريا إبراهيم ، والمعجم الفلسفي صـ ١٣٥ ، د/ مراد وهبة ، والأيديولوجيا ، الكلمة ، الفكرة ، الشيء صـ ٤٣، تأليف : بيار ماشريه ، ترجمة : هدى الفقيه ، مجلة الاستغراب . العدد ٦.

(٢) راجع مفهوم الأيديولوجيا صـ ٢٩ ، د/ عبد الله العروي ، والأيديولوجيا ، الخطاب ، النص ، نحو مقاربة مفاهمية ، أ/ عموري السعيد صـ ١٣٩ .

الحاكمة ، والتي تُناقض بطبيعة الحال طموحات وأهداف الطبقة المحكومة ، فالأيديولوجيا . عند ماركس . أصبحت الأساس الفكري للمادية التاريخية . (١)

وهذا الارتباط لم يلق قبولًا عند أكبر دعاة الأيديولوجيا في أوربا (كارل مانهايم ١٨٩٣ . ١٩٤٧م) (Karl Mannheim)، الذي يرى أن كلمة الأيديولوجيا ومعانيها أبعد غورًا في التاريخ من الماركسية ؛ لأن الأيديولوجيا استعملت قبل الماركسية للدلالة على مجموع النظم الفكرية التي تدافع عن النظام القائم ، وتُعبر عن مصالحه، ويقابلها مصطلح (يوتوبيا) (Utopia) ، وهو المعبر به عن النظرة المثالية ، والتي تهدف إلى الوصول إلى تغيير جذري.(٢)

٣ . اتساع مجالات استعمال مصطلح الأيديولوجيا :

ومن مظاهر التحولات الدلالية لمصطلح الأيديولوجيا اتساع مجالات استعماله ؛ فقد استعمل هذا المصطلح في علم الاجتماع ليدل على مجموعة من الأفكار المتداخلة والتي يؤمن بها مجتمع معين ، وتعكس اهتماماته الاجتماعية والأخلاقية وتبررها . (٣)

ويظهر من خلال التعريف السابق قيمة الأيديولوجيا الاجتماعية ، والتي تكمن في قدرتها على الإحاطة بالحقائق الاجتماعية ، وصياغتها صياغة جديدة ، ومدى فاعليتها في رسم صورة للواقع الاجتماعي ، وتقديم خريطة له ، وكونها محورًا لخلق الوعي الجمعي .

وممن استعمل الأيديولوجيا في مجال الدراسات النفسية والاجتماعية (كارل منهايم) ؛ فقد قسم الأيديولوجيا إلى قسمين :

---

(١) راجع : الأيديولوجية الألمانية صـ ٥٦ ، تأليف : كارل ماركس–فريدريك أنجلز، ترجمة د.فؤاد أيوب، دار دمشق للنشر ، دمشق ، سوريا ، ومشكلة الفلسفة صـ ٢٤٢ ، والأيديولوجيا ، الخطاب ، النص، نحو مقاربة مفاهمية ، أ/ عموري السعيد صـ ١٤٠ .

(٢) راجع : الأيديولوجيا واليوتيوبيا صـ ١٢٩ ، تأليف : كارل مانهايم ، ترجمة د /محمد رجا الديريني، نشر: شركة المكتبات الكويتية، ١٩٨٠م ، ومشكلة الفلسفة صـ ٢٤٧ .

(٣) راجع : مفهوم الأيديولوجيا ، صـ ١٢ .

أ . أيديولوجيا خاصة : وهي الحصيلة الفكرية التي تمكن الأفراد من اتخاذ مواقف معينة ، وتكوين وجهات نظر خاصة .

ب . أيديولوجيا عامة : وهي المتعلقة بنمط التفكير السائد في حقبة زمنية معينة، أو عند طائفة معينة : كالتفكير السائد لدى الطبقة (البرجوازية) أو (البروليتاريا) . (١)

وفي المجال السياسي استعملت الأيديولوجيا لتدل على مجموعة من الأفكار التي يؤمن بها حزب معين ، أو حكومة معينة ، وتسعى لتحقيقها ترغيبًا ، أو ترهيبًا .

ومن خلال هذا التعريف يتجلى لنا بوضوح اشتمال مفهوم الأيديولوجيا على معنى الخداع والتضليل ، وتزييف الواقع ، أو خلق الوعي الزائف ، ومحاولة إضفاء الشرعية على الوضع الراهن ، وقد شاع هذا المعنى السلبي للأيديولوجيا في الماركسية ، فهي عندهم بمثابة إعادة تطبيع بشكل مخادع لما هو تاريخي في الواقع ، وذلك بهدف التضليل . (٢)

رابعًا : نقد فلسفة الأيديولوجيا في بيئتها الأولى :

تعرضت الأيديولوجيا في مفاهيمها الأولى للنقد ، ونظرًا للمفاهيم السلبية التي أحاطت بمفهوم الأيديولوجيا . نتيجة التطور الدلالي للمفهوم . تعرضت لنقد أوسع وأشد ومن أهم أوجه النقد للأيديولوجيا ما يلي :

---

(١) راجع : الميتافزيقا ، العصر والأيديولوجيا ، تأليف : كارل منهايم ، ترجمة : عبد السلام بن عبد العالي ، صـ ٤٩ ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٨١ م ، نشر : الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الدار البيضاء .

والبرجوزاية : هي طبقة الرأسماليين العصريين المالكين لوسائل الإنتاج ، بينما البروليتاريا : هي طبقة العمال العصريين الذين يضطرون لبيع عملهم ليتمكنوا من البقاء على قيد الحياة . نظرًا لعدم امتلاكهم لأية وسيلة إنتاج . (البيان الشيوعي صـ ٤٥ . بتصرف يسير . ، تأليف : كارل ماركس ، فردريك إنجلز ، ترجمة : العفيف الأخضر ، منشورات الجمل ، بيروت . بغداد ، ط أولى ٢٠١٥م .)

(٢) راجع : الأيديولوجية الألمانية لكرل ماركس ، وفردريك إنجلز صـ ٥٦ ، و الأيديولوجيا ، الكلمة ، الفكرة ، الشيء صـ ٤٤ ، والأيديولوجيا واليوتيوبيا في فكر مانهايم مجلة الاستغراب ، صـ ٢٣٦ ، د/ محمد أمين بن جيلالي .

١ . أن الأيديولوجيا أقرب إلى التفكير الأسطوري الخيالي ، فهي مجرد تفكير تبسيطي جاهز .

٢ . يرى (كارل بوير١٩٠٢ . ١٩٩٤م) (Karl Popper)أن الأيديولوجيا لا صلة لها بالواقع ، فهي نوع من المثالية المفرطة .

٣ . الأيديولوجيا قضاء على التفكير الفردي للإنسان ؛ لأنه ينخرط في أيديولوجيا معينة ، فلا يفكر ، وإنما يكتفي بترديد الصيغ الجاهزة ضمن أيديولوجيا الجماعة.

٤. التناقض . أحيانًا . بين الفكر والواقع ، وهذا التناقض هو الذي حمَّل مصطلح الأيديولوجيا كل هذه المحمولات السلبية تاريخيًا ؛ حيث تخلت الأيديولوجيا عن الإنجاز النظري ، ثم أخفقت في تحقيق إنجاز عملي .[١]

٥. من أقوى أوجه النقد الموجهة للأيديولوجيا : أنها تعطيل للفكر الحر ؛ فإن الأيديولوجيا باعتبارها نسقًا فكريًا مغلقًا تعطي الكلمة الأخيرة ، وتضاد العقلانية ، وتقضي على التعقل تمامًا ، فمتى بزغت الأيديولوجيا تعطل التفكير الحر ، فالأيديولوجيا مضادة للعقلانية طالما كان العقل ضحية ما يجهض عقلانيته . [٢]

ويؤكد التضاد بين الأيديولوجيا والعقل أن سماتها لا تلتقي مع طبيعة العقل من الأوجه التالية :

أ ـ الأيديولوجيا نمط فكري مستقل عن الواقع ، بينما العقل ليس مستقلًا عن الواقع ، وليس خارجًا عن التاريخ .

ب ـ الأيديولوجيا نسق فكري مغلق ، بينما العقل ليس ساكنًا ، أنه في حالة تفاعل متواصلة مع البيئة المحيطة ، ومع كافة الاتجاهات الفكرية الفلسفية السائدة في العصر .

(١) راجع : ما الأيديولوجيا ص ١٦٥، ياكوب باديرون ، ترجمة أسعد رزق ط ١٩٨٥

(٢) راجع الدين والظمأ الأنطولوجي ص٢٠٩، د/ عبد الجبار الرفاعي ، ط أولى ٢٠١٦، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، العراق.

ج ـ الأيديولوجيا بارعة في حجب الحقيقة لصالح المنافع الشخصية أو المصالح الحزبية ، بينما يسعى العقل للوصول إلى الحقيقة . (١)

وهكذا نرى أن الأيديولوجيا تكوِّن صورًا خداعية تحرص على جمع الجمهور على رأي واحد ، كما تهتم بإشاعة المفاهيم الخاطئة ، وتشويه وجه الحقائق ، وتحرص دائمًا على تعطيل العقل ، وإشاعة البلاهة ، ومن ثم كانت الأيديولوجيا إحدى البدع الفلسفية الأشد إعاقة للعقل .

٦ـ ومن أوجه النقد للأيديولوجيا أنها تعيد إنتاج المآسي الفكرية في العصور الوسطى ؛ وذلك لأن مخترعو الأيديولوجيات يمارسون تسلطًا فكريًا ، ويسعون إلى احتكار الفهم وإنتاج المعنى ، وتسويق الأفكار الجاهزة ، وتلقينها باستمرار للفرد وللمجتمع ، ومع التكرار تصبح هذه الأفكار معتقدات مهما كانت ساذجة .

٧ـ تفشي الأيديولوجيات اليسارية والعلمانية وغيرها ينتج تعصبًا ممقوتًا ، وعقلًا متحجرًا لا يقبل الآخر ، ولا يرضى التعايش معه ، بل يرى كل حزب حياته في موت غيره . (٢)

ونتج عن ذلك : النظرة الأحادية لكثير من الجماعات ؛ إذ إن الأيديولوجيا نسق فكري مغلق ، يغذي العقل بمجموعة من المعتقدات والمفاهيم التي تعلن الحرب على فكرة لا تشبهها ، ويترتب على ذلك إنتاج نسخ متشابهة من البشر، وجمع الجمهور على المبادئ التي تقرُّها الأيديولوجيا مهما كانت نتائجها ، واعتقاد أن ذلك هو الحق ، وفي هذا الموقف الأيديولوجي إعادة لإنتاج الماضي الفرعوني ؛ فقد ذكر القرآن الكريم أن الفرعون القائد المهيمن وقف قائلًا لقومه **(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي)** [سورة غافر آية ٣٨] ، بل أعلن هيمنته التامة على العقول فقال **(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ)** [سورة غافر آية ٢٩] .

(١) راجع :الدين والظمأ الأنطولوجي صـ ٢١٠

(٢) راجع : الدين والظمأ الأنطولوجي صـ ١٢٠

ولأجل هذه الانتقادات ظهر من يبشر بنهاية الأيديولوجيا ضمن مقولة نهاية التاريخ التي رددها (هيجل١٧٧٠ . ١٨٣١م) (Hegel) و أشد المعجبين بفلسفته (فرانسيس فوكوياما ١٩٥٢م) (Francis Fukuyama) ؛ حيث أعلنا انتهاء عصر الأيديولوجيات ، ودعوا إلى عصر ما بعد الأيديولوجيا . (١)

تعقيب :

من خلال العرض السابق يتبين لنا أن الأيديولوجيا في أول أمرها . وقبل تحولاتها الدلالية . لم تكن تعني غير كونها بحثًا فلسفيًا في الفكر الإنساني ، ولم تتضمن معنًى سلبيًا ، ولم تكن تزييفًا للواقع ، أو وعيًا مزيفًا ، أو انطواءً على النفس ، وارتحالًا إلى الذات ، بل كانت نسقًا محايدًا من المعتقدات والمفاهيم ، وقد نشأت الأيديولوجيا كعلم شارح ، أو ما بعد العلم ، أو علم العلم.

وقد ذهب (داترسي) إلى أن الأيديولوجيا قادرة على تتبع أصول العلوم وبيان من أين جاءت ، وتقدم نَسَبًا علميًا للفكر ، وبذلك يصح القول بأن الأيديولوجيا . في أول ظهورها . تحلق فوق جميع العلوم ؛ لأن العلوم ليست إلا أفكارنا المختلفة ، وهذه الأفكار تشبه الطرق المتشعبة المتفرعة عن أصل واحد ، وبينها نقاط مشتركة ، والأيديولوجي مهمته دراسة الأصول الفكرية المشتركة للعلوم ، والأيديولوجيا في هذا الدور تشبه . بوجه ما . المنطق القديم ، ولكن مفهوم الأيديولوجيا تعرض بعد ذلك لتحولات دلالية ، أدت في النهاية إلى تعرض فلسفة الأيديولوجيا لعدد من الانتقادات السابقة ، الأمر الذي جعل بعض المفكرين يعلن نهاية فلسفة الأيديولوجيا .

(١) راجع الأيديولوجيا وثائق من الأصول الفلسفية صـ ١٩ ، تأليف : ميشيل فاديه ، ترجمة د/ أمينة رشيد ، وسيد البحراوي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٦م ، والأيديولوجيا صـ ٤٦ ، تأليف : ديفيد هوكس ، ترجمة : إبراهيم فتحي ، ط المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٠م ، والأيديولوجيا في تطورات دلالية ، مازن المطوري ، صـ ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

المبحث الثالث : المؤثرات الفلسفية في فلسفة الأيديولوجيا .

الأفكار الإنسانية ، والمذاهب الفكرية تتميز بالتداخل والتشابه فيما بينها؛ ولذا كانت سمة التأثير والتأثر هي اللغة الرسمية التي تكون بين النزعات الفكرية ، والمذاهب الفلسفية . لا سيما . إذا تقاربت زمانًا ومكانًا ، وتشابهت في ظروف ظهورها .

وبناءً على ما سبق جرى التأثير والتأثر بين فلسفة الإيديولوجيا وبين غيرها من التيارات الفكرية المعاصرة لها ، واشتركت معها في بعض السمات والخصائص ، ومن هذه التيارات :

١ . الفلسفة الوجودية :

نشأت الفلسفة الوجودية لإعلاء النزعة الفردية ، أو السمو بالإنسان من حضيض التبعية المطلقة ، لدرجة أن أصبح الفرد هو محور الدراسات الفلسفية، ومحل الاهتمامات العلمية ؛ ولذلك رفع أحد زعماء الوجودية وهو (جان بول سارتر ١٩٠٥ . ١٩٨٠م) (jean Paul Sartre)شعار (الوجود سابق على الماهية ، وأن الذاتية تبدأ أولًا) أي : أن الإنسان يوجد أولًا ، ثم يتعرف إلى نفسه ، ويتفاعل مع العالم الخارجي ، فيكتسب صفاته . (١)

وقد كانت الفلسفة الوجودية في أول ظهورها رد فعل على طغيان الاتجاه المادي التجريبي ، ومن ثَمَّ رفعت الوجودية لواء النزعة الإنسانية ، وركزت اهتمامها حول الإنسان باعتباره كيانًا مستقلًا ، وواقعًا بشريًا متطورًا لا يخضع للتجربة العملية . (٢)

ويظهر تأثر الأيديولوجيا بالوجودية من خلال العناصر التالية :

أ . **الفردية** : التركيز على محورية الفرد عنصر مشترك بين الوجودية والأيديولوجيا ولكن بدرجة بدرجات متفاوتة :

(١) راجع : الوجودية مذهب إنساني صـ ١٤ ، تأليف : جان بول سارتر ، ترجمة : عبد المنعم الحنفي ، الطبعة الأولي عام ١٩٦٤م .

(٢) راجع : الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة صـ١٦٦ ، د/ عبد الفتاح الديدي ، ط الهيئة العامة للكتاب

فالوجودية تجعل الفرد مصدرًا للتشريع والتقنيين ، وهي . في الأصل . مضادة لكل حركة جماعية ، ولكل فلسفة دعت إلى صب الناس في قوالب عقدية معينة ، فالوجودية فلسفة مقابلة لكل حركة تعميمية ، ولكل مشروع جماعي ، ولكل طائفة تتخذ ضروبًا معينة من القواعد والآراء لا تتعداها . (١)

أما الأيديولوجيا فهي نظام فكري يقود جماعة معينة ، ولكن مع ذلك الفرد في هذه الجماعة ليس كمًا مهملًا ، بل شخصيته وذاتيته ، فالأيديولوجيا تهتم بالفرد في إطار الجماعة لا باعتباره كيانًا مستقلًا عن المجتمع ، وبهذا يمكن القول بأن الأيديولوجيا تأثرت بالفردية التي قامت عليها الوجودية ، غير أنها نظَّمت هذه الفردية ووضعتها في إطار جماعي .

ب . إهمال الجانب الميتافزيقي : تشترك الأيديولوجيا والوجودية الملحدة التي يتزعمها سارتر في إهمال الميتافزيقا لأنها . عند كلٍ منهما . غير متعلقة بشيء خارج الوجود ، ولا هي باحثة عن شيء يتعدى نطاق المحسوس ، ومن هنا كان البحث عن عالم الغيب فيهما بحثًا في المجهولات ، وفي الوقت الذي يعلن فيه سارتر الإلحاد صراحة ، ويعتبر الإنسان هو البديل عن الإله حيث يقول : " لكن الوجودية الملحدة . والتي أمثلها أنا . تعلن في وضوح وجلاء تامين أنه إذا لم يكن الله موجودًا ، فإنه يوجد . على الأقل . مخلوق واحد قد تواجد قبل أن تتحدد معالمه وتبين ، هذا الموجود هو الإنسان " (٢) ، يلتقي معه على نفس الخط واضع الأيديولوجيا الأول (تراسي) الذي يعتبر الميتافزيقا مرحلة طفولة إنسانية . (٣)

٢ . الفلسفة الماركسية :

من المؤثرات الفلسفية في الأيديولوجيا الفلسفة الماركسية ؛ فإن الارتباط بينهما واضح ، وذلك من خلال النزعة المادية المتطرفة لكلٍ منهما ، وللصلة

(١) راجع : الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة صـ ١٩٠.
(٢) الوجودية مذهب إنساني ، جان بول سارتر صـ١٣ ، ١٤ .
(٣) راجع : الأيديولوجيا في تطورات دلالية صـ ٢٢٢.

الوثيقة بين الأيديولوجيا والفكر الماركسي اعتبر بعض المفكرين الأيديولوجيا اختراعًا ماركسيًا خالصًا ، ومن ثَمَّ وضعوا للأيديولوجيا مفاهيم تنسجم مع الفلسفة الشيوعية .

وتتضح الصلة بين الأيديولوجيا والماركسية من خلال كلٍ من :

أ . **المفهوم** : تأثرت الأيديولوجيا في بعض مفاهيمها بالفلسفة الماركسية ، فأُستعملت لتدل على هي مجموعة الأفكار التي تعكس مصالح الطبقة الحاكمة . (١)

ب . **الفكرة الأساسية** : الفكرة المحورية في الفلسفة المادية هي الغلو المادي ، واعتبار أن المادة هي كل شيء ، فالعالم عندهم أحادي العنصر ، لا يتركب إلا من المادة ، ولا مكان فيه للغيبيات أو الميتافزيقا أو الدين ، بل يعتبرون هذه المعاني رسومًا بالية ، وخرافات مضللة ، أو أفيون الشعوب، ونظر (ماركس) إلى الدين باعتباره إفراز خيال مريض ، قرين هلوسة متخمة ، يظهر ويجول في بلاد اللاعقل ، ففي بلاد العقل يتوقف وجود الإله . (٢)

٣ . الوضعية المنطقية :

ومن المؤثرات الفلسفية في الأيديولوجيا الوضعية المنطقية ، ويظهر أثر الوضعية المنطقية في الأيديولوجيا من خلال موقف كلاهما من الميتافزيقا :

فالوضعية المنطقية تنظر للميتافزيقا نظرة العداء الصريح ، وهذه الفلسفة قامت أساسًا كرد فعل على المبالغة في تقديس الميتافزيقا ، وفي ذلك يقول أحد كبار فلاسفة الوضعية المنطقية في انجلترا (ألفرد آير ١٩١٠ ـ ١٩٨٩م) (Alfred Ayer) في كتابه (اللغة الحقيقية والمنطق) في جوابه عن سؤال ما الذي كان الوضعيون يناضلون ضده ؟ قال : " كانوا أساسًا ضد الميتافزيقا،

(١) راجع الأيديولوجية الألمانية صـ ٥٦ ، كارل ماركس ، فردريك إنجلز ، ترجمة : د/ فؤاد أيوب .
(٢) راجع الماركسية والدين صـ ٢٤ ، د/ فيصل درّاج ، ط دار الفارابي ، بيروت ، ط ثالثة ٢٠١٧م ، ومشكلات فلسفية ، د/ زكريا إبراهيم صـ ٣٤٣ .

أو ما أسموه بالميتافزيقا ، وضد أي اقتراح بوجود عالم يحجب خلفه العالم العادي ، عالم العلم والفهم المشترك ، العالم الذي تكشف أدواتنا الحسية عنه " [١]

وموقف (آير) هذا هو نفس موقف أكثر فلاسفة الوضعية المنطقية ، وفلاسفة مدرسة الأنوار ، فالكل ينظر إلى الألفاظ الميتافزيقية باعتبارها ألفاظًا سيئة الاستعمال ، أو ألفاظ خالية من المضمون ، ومرحلة التفكير الميتافزيقي هي مرحلة الطفولة الإنسانية . [٢]

٤ . فلسفة الحداثة :

للاتجاه الحداثي في الأيديولوجيا أثر ظاهر ، ويتجلي ذلك الأثر في العناصر التالية :

١ . **القول بمركزية الإنسان** : في الأيديولوجيا الإنسان هو محور الاهتمام ، وكذلك تقرُّ فلسفة الحداثة ما يُسمى بـ (موت المؤلف) [٣]، وتعطي للإنسان الحق في قراءة النص قراءة حرة ، وتتسع مجالات القراءة لتشمل النص الديني ، كما يتسع هذا التحرر لينقلب بعد ذلك إلى تمرد على كل موروث ، ومحاولة لهدم الثوابت ، والقول بمركزية الإنسان هو الأصل الذي بنى عليه من دعا إلى (أدلجة) العقائد فكرته ، كما سيأتي تفصيله فيما بعد .

٢ . **نسبية الحقائق** : ونسبية الحقائق تعني عدم الثبات ، والتغير الدائم في المفاهيم ، فحقائق الأشياء في فلسفة الأيديولوجيا تتشكل وفقًا للظروف

(١) رجال الفكر صـ ٢٤١ ، تأليف : براين ماجي ، ترجمة : نجيب الصادي ، طبعة جامعة قان يونس ، بنغازي ، ليبيا .

(٢) راجع الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة صـ ٢٧٨ ، تأليف : د/ عبد الفتاح الديدي .

(٣) تناولت هذه الفكرة تفصيلًا في الورقة البحثية التي تقدمت بها للمؤتمر الدولي الأول لكلية أصول بالقاهرة عام ٢٠١٨م ، وعنوانها : النزعة التاريخية وتوظيفاتها الحداثية في العقيدة (الإلهيات نموذجًا).

المجتمعية من جهة ، ولنظرة الفرد من جهة أخري ، وليست حقائق الأشياء ثابتة كما نادى بذلك صاحب (العقائد النسفية) . (١)

ويوضح فكرة النسبية في الأيديولوجيا (كارل مانهايم) فيقول : " إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف يستطيع الإنسان أن يحيا ، ويستمر في حياته وتفكيره في وقت أصبحت فيه الأيديولوجيا واليوتوبيا تفرض نفسها على مسارات حياته ؛ فقد اعتقد الإنسان منذ وقت طويل أن تفكيره هو جزء من وجوده الروحي ، وأنه ليس حقيقة واقعية حسية ، ولكن هذا الاعتقاد قد تغير من داخل الإنسان نفسه ، وقد كان التغير الأيديولوجي يعني لدى الإنسان إعادة توجيه للقيم التي يُشتق منها السلوك ، ولكن في العصر الحديث تعاظم الاعتقاد بأننا لا يمكن أن نعيش على وتيرة واحدة أو على مبدأ فكري واحد "(٢)

وهكذا فالأيديولوجيا فلسفة مرتبطة بالتغيرات المجتمعية ؛ لأنها انعكاس لواقع أوجدته عوامل مختلفة .

٥ . البراجماتية :

البراجماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني براجما (pragme) ، وتعني : العمل النافع ، أو المزاولة المجدية ، ثم أصبحت فيما بعد عَلَمًا على المذهب العملي ، أو المذهب النفعي. (٣)

وفي المعجم الفلسفي البراجماتية : مذهب يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملاً، وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو كونها مفيدة ، والبراجماتي بوجه عام : وصفٌ لكل من يهدف إلى النجاح، أو إلى منفعة خاصة. (٤)

---

(١) راجع العقائد النسفية بشرح الإمام سعد الدين التفتازاني ١/ ٢٦ ، دار المصطفى ٢٠٠٧م ، وهي طبعة مصورة عن طبعة مطبعة كردستان العلمية بمصر عام ١٣٢٩هـ .

(٢) الميتافزيقا ، العصر والأيديولوجيا صـ ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) البراجماتية عرض ونقد، صـ ٢٧٨ ، د/ منصور عبد العزيز الحجيلي ، الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة الأديان والفرق والمذاهب – مجلة الدراسات العقدية – العدد الرابع، المدينة المنورة.

(٤) المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ، مادة : (براجماتية) صـ ٣٢ ، طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٨٣ م .

وتُعد البراجماتية عند المؤمنين بها هي الطريقة المثلى لحسم المنازعات حول القضايا الميتافزيقية التي لولاها ، وبدونها ما كان يمكن أن تنتهي ؛ لأن الطريقة البراجماتية في مثل هذه الحالات تفسر كل فكرة بتتبع ، واقتفاء أثر نتائجها العملية ، وإذا لم يكن للقضية نتيجة عملية فالنزاع حولها يعني من الوجهة العملية نفس الشيء ، ومن ثَمَّ فإن أي نزاع أو خصام بشأنها نزاع عقيم ، تافه ، معدوم الجدوى . (١)

وتظهر الصلة بين البراجماتية والأيديولوجيا من خلال التركيز على الجانب العملي والإنساني ، فالبراجماتية في أصل نشأتها فلسفة عملية انبثقت من الروح المادية للعصر الحديث ، وكذلك الأيديولوجيا هي علم الأفكار القابلة للتحقق في الواقع ، فهي ذات طبيعة عملية ؛ لأنها تسعى سعيًا حثيثًا إلى تحويل النظر والمعرفة المجردة إلى عمل ، وبهذا المعنى أخذ د/ حسن حنفي الأيديولوجيا ، وحاول تطبيقها على العقائد وعلى علم الكلام ، وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث الأخير من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى .

وهكذا يمكن القول بأن الأيديولوجيا اتجاه فلسفي شاركت في إنتاجه عناصر فلسفية متنوعة ، وتأثر بالتيارات الفكرية المتزامنة معه ؛ ففكرة الأيديولوجيا اجتمعت فيها مادية الماركسية ، ونسبية الحداثة ، وعملية البراجماتية ، وعداء الميتافزيقا في الوضعية المنطقية .

وكون الأيديولوجيا منظومة فكرية تسعي إلى قيادة الفرد والمجتمع يدعونا إلى وضعها بإزاء الدين لنرى ما بينهما من اتفاق واختلاف ، وهذا هو موضوع المبحث التالي .

(١) البراجماتية ، صـ ٦٤ ، تأليف : وليام جيمس ، ترجمة : محمد علي العريان ، تقديم : زكي نجيب محمود ، ط المركز القومي للترجمة ، عام ٢٠٠٨ م .

المبحث الرابع : الأيديولوجيا والدين .

باعتبار أن كلًا من الدين والأيديولوجيا منظومة فكرية تشريعية ، وعقدية حاكمة هناك بينهما تشابه ، ولكن هذا التشابه لا يمكنه أن يذيب ما بينهما من فوارق حاسمة تمنع أن يكون الدين أيديولوجيا ، وفي قضية الصلة بين الدين والأيديولوجيا اختلفت آراء الفلاسفة الغربيين :

١. يرى (ب .إيتين ١٧١٥ . ١٧٨٠م) (Étienne Bonnot) أن الدين لا يعتبر أيديولوجيا ، بل هو مختلف عن كل الأيديولوجيات من جهات متعددة :

أ . أن للدين أبعادًا ميتافزيقية غيبية لا تعترف بها فلسفة الأيديولوجيا إلا بما يخدم مصالحها ؛ وذلك لأن الأيديولوجيا منظومة فكرية معنية أكثر بما هو عملي .

ب . بعد الاتفاق على أن كلًا من الدين والأيديولوجيا يعملان على تلبية الحاجيات الفردية والمجتمعية ، إلا أن الفرق بينهما قائمٌ ؛ إذ إن النقاش لا يتعلق بالوظيفة الاجتماعية التي تقوم بها الأيديولوجيا والدين ، والفرق بينهما يتمثل في المجتمع الذي يُحكم به كلٌ منهما : الدين خاص بالمجتمعات التقليدية المتجانسة ، بينما تكون الأيديولوجيا حاكمة للمجتمعات العصرية القائمة على الصراع .

ويعتبر (إيتين) أن هذه الفروق كافية في عدم اعتبار الدين أيديولوجيا، والقول بأن الدين أيديولوجيا . في نظره . أمر مرتبط بالسذاجة الذاتية ، أو بالعمى الثقافي . [١]

ويضيف عالم الاجتماع (رايمون بودون ٢٠١٣.١٩٣٤م) (Raymond Boudon) ثمانية معايير مميزة للمنظومات الأيديولوجية ،

(١) راجع : بين الدين والأيديولوجيا ، (ب . إيتين) ، الأيديولوجيا . سلسلة دفاتر فلسفية ، صـ ٢٥ ، ترجمة وإعداد : محمد سبيلا ، عبد السلام بنعبد العالي ، ط ثانية ٢٠٠٦م ، دار توبقال للنشر . الدار البيضاء . المغرب .

وهذه المعايير تعمق الاختلاف والفارق بين الأيديولوجيا والدين ، وهذه المعايير هي :

الطابع الصريح والواضح لصياغتها . إرادتها الالتفاف حول معتقد ايجابي أو معياري خاص . إرادتها التمييز بين منظومات معتقدية أخرى ماضية أو حالية . انغلاقها أمام التجديد. الطابع المتشدد لاقتناعاتها . الطابع الأهوائي لانتشارها . مطالبتها بالانتماء . ارتباطها بمؤسسات مكلفة بدعم وتحقيق المعتقدات المعنية . (١)

تعقيب :

هذه التفرقة بالوجوه التي ذكرها (إيتين) الهدف منها . فيما أرى . إعلاء الفلسفات البشرية النظرية على الدين ، وفي هذا نزعة علمانية حداثية واضحة؛ فالدين بمقتضى هذه التفرقة لا يصلح إلا أن يكون حاكمًا للمجتمعات التقليدية البدائية ، التي لا تتطلع إلى التقدم ، وتكتفي من حياتها بالضرورات المعيشية، ولا إلى التفكير والإبداع ؛ ولذا كانت المجتمعات الإسلامية متدينة ؛ لأن الدين يناسب طبيعتها الدينية ، ويلتقي مع تعصبها الديني .

أما المجتمعات الأوربية فهي . في نظره . مجتمعات عصرية متقدمة ، وحياتها قائمة على الفكر والإبداع والصراع الإيجابي البنَّاء ؛ ولذا كانت الأيديولوجيا هي سمة هذه المجتمعات.

وبهذا نتبين أن هذه التفرقة لصالح الفكر البشري على حساب المقدس ؛ وذلك نتيجة للانخراط في الناحية المادية الدنيوية ، وتبعًا لهذا الغلو المادي يتضاءل الاهتمام بالحياة الروحانية ، والتي يُعد الدين شكلًا من أشكالها .

وعلى الجانب الآخر : يرى (ويليام لابيير ١٩٢١ . ٢٠٠٧م)(William Lapierre) أن الدين يمكن أن يكون أيديولوجيا ، والأيديولوجيا بمعناها الفلسفي الدقيق هي ظاهرة دينية ؛ لأن لكل أيديولوجيا أنصارها .

(١) راجع : ثمانية معايير مميزة للمنظومات الأيديولوجية ، رايمون بودون ص١٩، ترجمة وإعداد : محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي ، سلسلة دفاتر فلسفية (الأيديولوجيا) .

ويرى (لابيير) أن هناك جوامع بين الأيديولوجيا والدين تجعلهما متساويين ، ومنها :

أ. أن الدين رابطة تجعل الناس يشتركون في المعتقدات المتعلقة بما هو مقدس بالنسبة لهم ، وكذلك الأيديولوجيا هي رابطة فكرية تجعل الناس يسيرون وفقًا لأفكار معينة.

ومع هذا التشابه يبقى هناك فرق بين الدين والأيديولوجيا ، فالدين هو خطاب المتعالي المقدس ، يتجاوز فيه حدود العقل ، أما الأيديولوجيا فهي خطاب العقل للعقل ، بل تحاول تقريب المقدس إلى الأذهان ، فهي تدخل المقدس في إطار عقلي ، وتقدس العقل ، وبهذا فالأيديولوجيا هي (ديانة في حدود العقل) كما يقرر ذلك (إيمانويل كانط ١٧٢٤. ١٨٠٤م) (Immanuel Kant) . أو هي ضمن أشكال العقل ، وها هو يقول بعد إرساء القواعد العقلية المحضة للدين : " بذلك لا يوجد أي معيار آخر للإيمان الكنسي غير الكتاب، ولا أي مؤول آخر سوى الدين العقل المحض ، ومعرفة الكتاب المقدس " (١)

وهكذا يجعل (لابيير) الأيديولوجيا مماثلة ومناظرة للأديان ، بل إنها عنده . تقوم بدور الوسيط بين المقدس والعقل البشري ، فتقدس العقل ، وتعقلن المقدس ، وبهذا فالأيديولوجيا يرُى فيها عملية اتصال وتفاعل بين العقل والوحي .

يقول لابيير : " إن الأيديولوجيات الكبرى المعاصرة . مثلها مثل الديانات الكبرى الكونية التي يمكن أن ترى فيها أشكالًا انتقالية بين الديانات (المقدسة) والديانات الأيديولوجية . تؤكد أنها صالحة للجميع ، وصادقة دومًا في كل مكان " (٢).

(١) الدين في حدود مجرد العقل صـ ٩٢ ، تأليف : إيمانويل كانط ، ترجمة : فتحي المسكيني ، ط دار جداول للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ٢٠١٢م ، وقد توسع (كانط) في شرح فكرة (عقلنة الدين) في هذا الكتاب .

(٢) الأيديولوجيا والدين، (ويليام لابيير) الأيديولوجيا . سلسلة دفاتر فلسفية ، صـ ٢٧ ، ترجمة وإعداد : محمد سبيلا ، عبد السلام بنعبد العالي ، ط ثانية ٢٠٠٦م ، دار توبقال للنشر . الدار البيضاء . المغرب .

ب . الأيديولوجيا والدين يعطيان للإنسان مبررات فكرية لسلوكياته ، كما أنهما يقدمان للفرد أسباب الحياة ، ويقدمان كذلك له الأسباب التي تجعله يضحي بحياته من أجلهما . (١)

ج . الأيديولوجيا والدين يؤسسان علاقات اجتماعية بين معتنقيهم ، ويؤلفان بينهم ، ويوجدان التحامًا عضويًا بين أفراد المجتمع .

د . لكلاهما مجموعة من المبادئ والقواعد التي ينبغي أن يلتزم بها الأتباع والأنصار ، وهذه القواعد . لقداستها . غير قابلة للنقد .

هـ . تواجه الأيديولوجيا ما تواجهه الأديان من انشقاق مذهبي ، واختلاف في الفهم ، وهذا الاختلاف في الأديان أساسه الاختلاف بين إخضاع النص للواقع ، أو إيجاد نوع من الموائمة بين النص والواقع ، وأساسه في الأيديولوجيا الاختلاف بين الفكر والواقع . (٢)

و. كذلك تتشابه الأديان والأيديولوجيا في الغاية التي يسعى إليها كل منهما ، فكلاهما يسعى إلى وضع تصور كلي وشامل للعالم من كافة جوانبه ، وكذا يضعان تصورًا للإنسان ووظيفته في الكون، كما أن كلاهما يسعى إلى تغيير العالم بفعل المؤمنين بكلٍ منهما . (٣)

ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا اختلاف منهجية كلٍ منهما في تحقيق هذه الغاية :

فالدين يسعى لتغيير العالم بما يتوافق مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها ، وذلك يقتضي مراعاة التركيب الثنائي للإنسان من جسد وروح ، وتلبية مطالب كل منهما ؛ ولذا فقد اشتملت الأديان على ما يلبي حاجة الجسد من تشريعات تحفظ على الإنسان صحته وعرضه وماله ، وتضمن له عدم انتهاك حرماته ، وكذا اشتملت على ما يلبي حاجة الروح من عقائد وعبادات

(١) راجع الأيديولوجيا والدين، (ويليام لابيير) صـ ٢٦ .
(٢) الأيديولوجيا والدين، (ويليام لابيير) الأيديولوجيا . سلسلة دفاتر فلسفية ، صـ ٢٦ .
(٣) راجع الأيديولوجيا في الدين والسياسة صـ ٧١ .

وأخلاق ، وبذلك يصبح الدين منظومة كاملة لا مكان فيها للنقص ،ولا محل فيها للتكميل أو للاستدراك .

أما الأيديولوجيا فسعيها لتغيير العالم هو سعي لطبع العالم والإنسان معًا بطابعها حتى ولو كان مناقضًا لفطرة الإنسان ، وللنواميس التي بثها الله . تعالى . في الكون.

ولأوجه التشابه السابقة نقل (برتراند رسل ١٨٧٢ . ١٩٧٠م) (Bertrand Russell) القضية من مجرد تشابه إلى تساوي بحيث يمكن أن تحل الأيديولوجيا محل الدين ؛ فقد أقام (رسل) توازيًا وتوافقًا بين المسيحية كدين ، والشيوعية كأحدى الأيديولوجيات ، وجعل (ماركس) في محل المسيح، وكتاب رأس المال محل الإنجيل، وطبقة (البروليتاريا) محل الكهنة ، وأقام مجتمع اللاطبقية ، أو الفردوس الأرضي مقام الفردوس الأخروي. (١)

والحق في هذه القضية أن الدين والأيديولوجيا لا يتساويان حقيقة . وإن تشابه ظاهريًا . ؛ لأن للدين خصائصه التي تضعه في المقام الأرقى بين كافة المنظومات التشريعية ، وهو قائم على مجموعة قناعات مرتبطة بالتقديس والتعظيم ، بخلاف الأيديولوجيا ؛ فإنها ذات طابع مزدوج ، فهي اعتقاد ومعرفة ، أو بالأحرى هي معرفة تقوم على اعتقاد ، فالجانب المعرفي في الأيديولوجيا يجمع بين الوعي ، وهو جانب المعرفة ، وبين جانب اللاوعي ، وهو جانب الاعتقاد ، فالأفكار الأيديولوجية تعبر عن قناعات ذاتية أكثر من كونها معبرة عن حقائق موضوعية ، فهي قضايا فارغة المعنى ، أو هي أشباه قضايا . (٢)

ويتأكد الفرق بين الدين والأيديولوجيا بكثير من أوجه الخلاف الظاهرة بين الإسلام . باعتباره الدين الحق . وبين الأيديولوجيا ، وذلك من خلال الجواب عن السؤال الذي يطرحه المبحث التالي :

(١) راجع الأيديولوجيا في الدين والسياسة صـ ٧١ نقلًا عن القرن التاسع عشر بوصفه عصر الأيديولوجيا صـ ٢٠٤.

(٢) راجع الأيديولوجيا (نحو نظرة تكاملية) صـ ١٧١ ، د/ محمد سبيلا .

المبحث الخامس : هل يمكن اعتبار الإسلام أيديولوجيا ؟

بناءً على الفرق بين الأيديولوجيا والدين يمكن القول بأن الإسلام ليس أيديولوجيا ، ويمكن ملاحظة الفرق بين الإسلام وبين الأيديولوجيا من خلال الأوجه التالية :

١. الإسلام إلهي المصدر ، بينما الأيديولوجيا فلسفة بشرية المصدر .
٢ . الإسلام دين كامل معصوم بعصمة وكمال واضعه ، أما الأيديولوجيا فهي ناقصة و عرضة للخطأ ، ودائمًا قابلة للاستدراك ؛ لأنها ترعى جانبًا على حساب آخر ، وتعمل لصالح طبقة على حساب أخرى .
٣. الأيديولوجيا تسعى لتحقيق أهدافها بواسطة مجموعة من الشعارات التي تناشد العادات والتقاليد وتخاطب الرغبات والشهوات ، فاعتمادها على العاطفة أكثر من اعتمادها على العقل ، وهذا بخلاف الإسلام الذي يخاطب العقل ، ولا يناقض قواعده ، كما أنه يعمد . أيضًا . إلى إيقاظ العاطفة والوجدان .
٤. الأيديولوجيا . كمنظومة فكرية . يمكن أن تتغير كليةً لتتوافق مع متطلبات الأجيال الجديدة ، بخلاف الإسلام ، فلا يمكن تغييره من قِبَلِ البشر ، وإن كان يمكن تجديد خطابه ، تجديدًا لا يهدم قواعده ، ولا يمسُّ ثوابته .
٥. الإسلام لا يعتمد على الخرافات والأساطير ، بل يحاربها ، ويسعى للقضاء عليها ، ويؤسس ما يؤسسه من معارف وتشريعات على الحقيقة المحضة ، أما الأيديولوجيا فقد تعتمد على الأساطير الخداعة لتبرير أهدافها ، وجذب الجماهير .
٦. الإسلام قائم على التسوية بين الجميع في الحقوق والواجبات ، بينما تقوم الأيديولوجيا على التمييز العنصري ، والتفرقة الطبقية ، بل من الأيديولوجيات ما قام لأجل تبرير تسلط الطبقة الحاكمة . [١]

(١) راجع الأيديولوجية الألمانية صـ ٥٦ ، تأليف : كارل ماركس–فريدريك إنجلز، ترجمة د.فؤاد أيوب والأيديولوجيا في الدين والسياسة صـ ٧٢.

٧ . الأيديولوجيا قد تكون أفكارًا مخالفة للواقع ، أو ما يُسمى بالوعي الزائف بالواقع ، بخلاف الإسلام الذي أتي لتأسيس اليقين ، وإيقاظ الوعي إيقاظًا يقوم على هدي النقل ، ومخاطبة العقل .

٨ . أن الأيديولوجيا تقوم على استبعاد الميتافزيقا والغيبيات كلية ، والإسلام ليس كذلك ، بل الإيمان بالغيب أحد مقوماته العقدية ، وأولي صفات المتقين المفلحين ، قال تعالى **(الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)**(سورة البقرة الآيات١ :٥)

٩. الأيديولوجيا من صنع المجتمع ، فهي مجموعة من الأفكار التي كونها المجتمع ، واعتبرها ضابطة لتصرفات الأفراد ، بخلاف الإسلام فهو وحي من عند الله . (١)

١٠ . الأيديولوجيا نسق فكري مغلق ، لا يقبل التعديل ، بخلاف الإسلام فإن البناء المعرفي فيه يشتمل على نسقين :

أ . نسق مغلق : وهو كل ثابت لا يقبل زيادة أو نقصًا ، ويشمل هذا النسق : العقائد ، والأخلاق ، وأصل التشريع ، وفيما يلي بيان كلٍ :

أولًا: العقائد : وهي أصل الإسلام والأديان السماوية كلها وأساسها ؛ لأنه تعطى رؤية واضحة عن المعبود وصفاته ، وأنه واحد لا شريك له قيوم غنى عن كل ما سواه ، وأنه عالم قادر مريد حي سميع بصير خالق رازق مميت محيي .. إلي غير ذلك من الكمالات التي لا تتناهى ، ولا يحيط بها علمنا ، ولا يحصرها العدد .

ومما يعني الإسلام ببيانه في هذا المجال : جملة من المعارف المتعلقة ببدء عالم الخلق ، وكيفية صنع الله . عزّ وجل . وإتقانه لعالم التكوين، وبدء

(١) راجع : الأيديولوجيا (نحو نظرة تكاملية) صـ ٢٢ ، د/ محمد سبيلا .

خلق الإنسان باعتباره أشرف مخلوق خلقه الله تعالي ، وسخركل ما في الكون لأجله.

ويهتم الإسلام في هذا المجال بتعريف الإنسان بكثير من الغيبيات التي يعجز العقل وإدراك البشر عن فهمها ، والإحاطة بكنهها ، والاطلاع علي حقيقتها : كأمور الحياة الآخرة ، والموجودات التي يعجز حسه المباشر عن إدراكها: كالملائكة ، والجن ، ويمكن إجمال هذا الجانب في كلمات ثلاث ، وهى : الإلهيات ، والنبوات ، والسمعيات.

والعقائد في الإسلام نسق مغلق ، لا يقبل الزيادة والنقصان ، بل هي كذلك في كل الأديان السماوية ، وبالتالي فلا تتغير من دين إلى دين ، فكل الأديان عقيدتها واحدة ؛ لأن العقائد كليات غير قابلة لأن تفنى في وقت من الأوقات ، فهي حقائق ثابتة ، لا تتغير في ذاتها ، وإنما الذى يتغير هو مستوى إدراكنا لها . (١)

ثانيًا: الأخلاق : وهي القيم والهيئات الراسخة في النفس كالصدق والأمانة والحياء والصبر وغيرها من محامد الأخلاق ، وهذه القيم تلتحق بالعقائد في الثبات وعدم التغير ، فالقيم الخلقية لا تخضع للنسبية ، بل هي حقائق وقيم ثابتة ، لا يتغير الحكم عليها أو وصفها بتغير الزمان والمكان والأشخاص والظروف ، ولا تتغير من دين إلى دين ، فالأمانة خلق محمود في كل زمان ومكان والخيانة مذمومة في كل زمان ومكان ، فالقواعد الخلقية في الإسلام . كذلك . نسق مغلق ؛ ولذا فالقواعد الخلقية في كل الأديان واحدة ، ونبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بُعث متممًا لها ،كما قال : **(إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)** (٢)

---

(١) راجع : نظرات في العقيدة الإسلامية صـ ١٤٤ ، د/ محمد الأنور حامد عيسى ، دار الطباعة المحمدية.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه ، حديث رقم ٨٧٢٩ ، والبيهقي في السنن الكبري ، كتاب الشهادات ، باب بيان مكارم الأخلاق ، حديث رقم١٩١٤٣ ، والبخاري في الأدب المفرد ، حديث رقم ٢٧٣ ، والحاكم في المستدرك ، حديث رقم ٤١٨٧ ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

ثالثًا: التشريع : جاء الإسلام يحمل الكثير من التشريعات والقوانين التي استهدفت تنظيم حياة الإنسان وعلاقاته في ما يرتبط بعلاقته مع ربه ، وفي ما يرتبط بعلاقته مع الآخرين من بني جنسه، وفي ما يرتبط بعلاقته مع الطبيعة ، وما سخر الله له من النعم ، وهذه التشريعات تتأسس علي مبدأين رئيسين هما:

أ . مبدأ التكليف والتشريع : والذي علي أساسه يشرع الله سبحانه التشريعات لعباده باعتباره الولي الحقيقي لهم، ولا ولاية لأحد من الخلق علي غيره ، وإلي هذه الولاية أشارت آيات الذكر الحكيم ، قال تعالي **(إِنَّ اللَّه لَه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يحْيي وَيمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّه مِنْ وَلِي وَلا نَصِيرٍ)** [سورة التوبة آية ١١٦]

ب . مبدأ الحكمة والغاية من التكليف : والذي يعني أن الله لم يخلق الخلق عبثًا ، قال تعالى **(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَينَا لا تُرْجَعُونَ)** [سورة المؤمنون آية ١١٥] ، ومن المعلوم أن الحياة الإنسانية لا تستقيم بدون تشريع يضبط السلوكيات ، ويضمن الحقوق ويحدد الواجبات ؛ ولذا وجدنا الرسالات السماوية مشتملة على تشريعات معينة .

وأصل التشريع نسق مغلق أيضًا ، لا يقبل الزيادة والنقص ، بل الزيادة على أصل ما شُرع أو النقص عنه بدعة شرعية مضلة . (١)

ب . نسق مفتوح : يشتمل الإسلام على النسق المفتوح ، وهو : كل ما للرأي فيه مجال ، وهذا يُعد منطقة فراغ تشريعي تملؤها المذاهب الفقهية ، والتي لا تخرج عن الإطار العام للنصوص ولأصول ومقاصد التشريع .

ويلتحق بهذا النسق : الأمور الحياتية المتغيرة ، فالعلماء مطالبون في هذا الجانب بالاجتهاد ، والأخذ بأسباب التقدم بما لا يتعارض مع القواعد الكلية للتشريع ، ولا يُخِلُّ بالأصول العقدية ، ولا يتعارض مع القيم الخلقية ، والإسلام في النواحي الحياتية ليس دينًا جامدًا يقدم لأتباعه الحلول الجاهزة كما تفعل

(١) راجع : الاعتصام للإمام أبي إسحاق الشاطبي ٣٥/١ ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ، عام ٢٠٠٩م ، والإبداع في مضار الابتداع ،صـ ٢٢ ، تأليف الشيخ علي محفوظ ، ط مكتبة الإيمان بالقاهرة ، ومكتبة الجامعة الأزهرية بأسيوط ، ط أولى ٢٠١١م .

الأيديولوجيات الفكرية ، بل هو دين موافق للفطرة مساير لروح العصر .

تعقيب : بناءً على ما سبق يمكن تقرير النتائج التالية :

أولًا : الإسلام ليس أيديولوجيا ، بل هو تشريع حكيم ، منزل من رب العالمين ، وهو مجموعة القوانين الكلية الضابطة للأفراد وللمجتمعات ، والتي تقود أتباعها إلى صلاح في الدنيا ، وفلاح في الأخرة ، والإسلام كذلك يحتوي من الآليات التي تضمن له البقاء ، وتجعله مسايرًا للعصر ، مستوعبًا كافة المستجدات ، ومن هنا كان الإسلام موجهًا للجميع ، أما الأيديولوجيا فتقتصر على فترة معينة ، وهي موجهة لطائفة معينة لتحقق واقعًا اجتماعيًا تتجسد فيه مبادئ وقيم ومفاهيم تُعرف في مجموعها باسم الأيديولوجيا .

كما أن وصف الإسلام بالأيديولوجيا قد يوهم تشككًا في مصدره الإلهي باعتباره وحيًا منزلًا ، فالإسلام في مصدره تشريع إلهي خارج المجتمعات ، ثم يصير بعد ذلك شرعًا مطبقًا وواقعًا ملموسًا على الأرض ، بخلاف الأيديولوجيا؛ فإنها ترجع إلى توازنات اجتماعية قائمة داخل المجتمعات التي نشأت فيها لا خارجها .

ثانيًا : الأيديولوجيا فلسفة متوحشة لا ترحم الضعفاء ، فهي في شكلها السياسي مقصد للطبقة المسيطرة لتبرير الوضع القائم ، بخلاف الإسلام الذي يجد فيه الجميع العدالة والرحمة.

ثالثًا : الأيديولوجيا أداة في يد الطبقة الحاكمة لتبرير الظلم والتسلط ، بينما الإسلام عامل من عوامل الثورة لرفض الظلم ؛ ولذا يسعى أنصار بعض الأيديولوجيات إلى تأويل النصوص والمواقف الدينية . وهو ما يُعرف بأدلجة الدين . لتفادي الثورات الدينية ، أو ما يسمى بحركات الإصلاح الديني ، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى شاهد على إحدى محاولات أدلجة المقدس، وذلك من خلال تقرير نظرية الحق الإلهي المقدس لتبرير الاستبداد السياسي والتسلط الكنسي . [١]

رابعًا : بناءً على أوجه الاختلاف بين الدين والأيديولوجيا لا يمكن

(١) راجع الأيديولوجيا في الدين والسياسة صـ ٧٢.

الاستعاضة عن الدين بالأيديولوجيا ، ويؤكد (أرنولد توينبي ١٨٨٩ . ١٩٧٥م) (Arnold Toynbee) على أهمية الأديان ، وخطورة الفراغ الديني فيقول : " ولكن إن قُدر للأديان العُليا أن تُقصى عن الميدان ، لحدث فراغ يُخشى أن تشغله أديان دُنيا ، ....وهذه الأيديولوجيات . التي أحلها البشر محل الأديان . هي في صميمها عودة للإنسان إلى عبادته القديمة لذاته ". (١)

خامسًا : الأيديولوجيا لا مكان فيها للأخلاق ؛ فهي . في بعض الأحيان . تتعمد تشويه أو إخفاء الحقائق باللجوء إلى المغالطة والسفسطة ، وذلك بخلاف الإسلام ، والذي تُعد الأخلاق جزء أصيل منه ، ومقومًا من مقوماته .

سادسًا : أن الأيديولوجيا مفسدة للإسلام ؛ فإن الإسلام دوره يتمثل في إصلاح الدنيا والدين ، والقيام بما قصر العقل والخبرة البشرية عن القيام به ، ولم يأت الدين أبدًا لإلغاء العقل ، أو لإيقاف سعيه ، بل دعت النصوص الكثيرة إلى التفكر وإعمال العقل ، وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة أدلة كثيرة على هذا المطلب العظيم ، فقد خُتمت كثيرمن الآيات بما يدل على أن المخاطب بالكتاب العزيز هم من يُعملون العقل تفكرًا وتعقلًا وتذكرًا وتدبرًا كقوله تعالى : **(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)** و قوله عزَّ وجلَّ : **(لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** .

كما توعَّد النبي . صلى الله عليه وسلم . من رأى آثار القدرة ، أو مرت عليه آيات الإبداع الإلهي في الخلق ، ولم يتفكر فيها ، فلمَّا نزل قوله تعالى **(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)**[سورة آل عمران آية ١٩٠] قال . صلى الله عليه وسلم .: **(وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا)** (٢)

---

(١) مختصر دراسة التاريخ ١٨٠/٣ (بتصرف يسير) تأليف : أرنولد توينبي ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، مراجعة : محمد شفيق غربال ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ، عام ٢٠١٥م .

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه بسنده من حديث السيدة عائشة . رضي الله عنها . باب التوبة . ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ الْمَرْءَ عَلَيْهِ إِذَا تَخَلَّى لُزُومُ الْبُكَاءِ عَلَى مَا ارْتَكَبَ مِنَ الْحَوْبَاتِ، وَإِنْ كَانَ بَائِنًا عَنْهَا مُجِدًّا فِي إِتْيَانِ ضِدِّهَا ، حديث رقم ٦٢٠ ، وقال شعيب الأرناؤوط (محقق صحيح ابن حبان) في هذا الحديث : إسناده صحيح على شرط مسلم. (صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٢/ ٣٨٦ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ثانية ١٩٩٣م .

سابعًا : الأيديولوجيا تقضي على التساؤل ؛ لأنها تقدم الأفكار كحقائق نهائية ، وتحذر من طرح الأسئلة ، وتعتبرها زعزعة للمجتمع .

وقضاء الأيديولوجيا على التساؤل يُعد تنكرًا لباب مهم في الدين ؛ فقد جعل النبي . صلى الله عليه وسلم . شفاء العي في السؤال ، وكان السؤال كذلك حقًا مشروعًا أقره القرآن الكريم ، وذكر سؤال المسلمين للنبي . صلى الله عليه وسلم . فقال تعالى : (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)** [سورة الأنفال آية ١] ، وقال عزَّ وجلَّ : (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)** [سورة البقرة آية ٢١٩].

ومن ناحية أخرى : القضاء على السؤال قضاء على التفكير والتفلسف في ذاته ؛ فإن الفلسفة تبدأ بالدهشة ، ثم بطرح أسئلة ؛ ولكي يتطور البحث الفلسفي يجب أن يكون تساؤليًا على الدوام . (١)

وإذا تعطل السؤال تعطل التفكير ، والأيديولوجيا تعطل السؤال بحرصها على تقديم الأجوبة النهائية لكل سؤال مهما كان من خلال منطق تبسيطي، يقضي بأن كل سؤال لابد له من جواب نهائي منعًا للشكوك .

أيضًا في قضاء الأيديولوجيا على السؤال قضاء على وظيفة أساسية للعقل ، فوظيفة الأسئلة في العقل هي التي تسمح لنا أن نفند وأن نراجع ، وأن يدحض العقل ، ويُكذب الأخطاء التي كان يعتقد أنها حقٌ .

إن التساؤل الدائم يسمح لنا بالنظر في طائفة من الموروثات ، فالشك قد يقتل المعارف البسيطة ، لكنه يحيي المعارف المركبة ، ومن هنا كان

(١) راجع : الدين والظمأ الأنطولوجي ، د/ عبد الجبار الرفاعي ، صـ ١٢١ ، ط أولى ٢٠١٦، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، العراق .

لطريق الشك المنهجي الذي سلكه كلٌ من الغزالي وديكارت قيمته ودوره في تأسيس المعرفة اليقينية . (١)

إن التساؤل عامل مهم في نشأة الحضارات والمدارس الفلسفية الكبرى ؛ فإن الأفكار المبتكرة تتولد من رحم الاستفسار ، والآراء الوجيهة تطرح باستمرار في فضاء التساؤلات. (٢)

ويبالغ (غاستون باشلار ١٨٨٤-١٩٦٢) (Gaston Bachelard) فيقضي تمامًا على المطلقات ، ويقرر النسبية ، وينفي وجود حقائق أولى ، ويستند في ذلك إلى الواقع المتغير دائمًا ، والواقع والعقل يتبادلان النصح باستمرار ، وبناءً على ذلك يستمر السؤال . (٣)

وبناءً على النتائج السابقة ، وعلى اختلاف الدين عن الأيديولوجيا ، وعلى أوجه الفرق بين الإسلام والأيديولوجيا تصبح أي محاولة لإدخال الدين الحق ضمن المنظومات الأيديولوجية تحت أي مسمى هي محاولة فاشلة ، وفي المبحث التالي سنناقش إحدى محاولات تحويل العقائد إلى أيديولوجيا ، وذلك من خلال إهمال الجانب الميتافزيقي الغيبي في العقائد باعتباره مجرد ثقافة نظرية لا تفيد ، والتركيز على الجانب العملي الملموس في حياة الإنسان باعتباره أيديولوجيا عملية ، وهذا الجانب العملي هو المقصد الحقيقي للوحي .

(١) راجع : دراسات في الفلسفة الحديثة صـ ٥١ ، د/ محمود حمدي زقزوق .
(٢) راجع : الدين والظمأ الأنطولوجي صـ ١٢٣
(٣) راجع الفكر العلمي الجديد صـ ١٢ ، تأليف : غاستون باشلار ، ترجمة د/ عادل العوا ، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٣م .

المبحث السادس : نقد دعوى أدلجة العقائد

تحت مسمى التجديد وبالرغم من ظهور الفرق بين الإسلام والأيديولوجيا ظهر من ينادي بإدخال الإسلام ضمن الأيديولوجيات الدينية ، وعُرف ذلك باسم (الأدلجة) .

وتتعدد مجالات (أدلجة الإسلام) . عند أنصارها . لتشمل الجانب الاجتماعي والاقتصادي ، كما في مشروع الأدلجة عند المفكر الإيراني (علي شريعتي) [١]، والجانب العقدي كما في مشروع التجديد عند(د/ حسن حنفي)، وسوف يركز البحث على هذا الجانب فقط .

لقد تركز مشروع د/ حسن حنفي حول أدلجة العقائد ، أو ما أسماه بـ (إعادة بناء علم العقائد) ، وذلك من خلال أهم أعماله ، وهو كتاب (من العقيدة الي الثورة) ، وهذا الكتاب الضخم بمجلداته الخمسة محاولةٌ من صاحبه لتحويل العقائد من ثقافة نظرية إلي إيديولوجيا عملية ، وقد أعلن عن مشروعه هذا في بحثه الذي قدمه عام ١٩٧٠م بـ (لوفين) فقال : " إن تحويل الثيولوجيا . علم اللاهوت . إلى أنثروبولوجيا . علم الإنسان هو في النهاية مقدمة لتحويل الدين إلى أيديولوجيا . " [٢]

---

(١)أدلجة الدين عند علي شريعتي تعني : أن يصير ما هو دنيوي دينيًا ، فالأدلجة عنده هي ضرب من تمديد المقدس وتوسعته ليشمل الدنيوي فيحوله مقدسًا ، وحينما يتسع المقدس ويضمحل الدنيوي ، ويصير كل شيء مقدسًا يختنق فضاء الحرية ، ويكف العقل عن أن يظل عقلًا .

والهدف الأسمى لأيديولوجيا (شريعتي) هو تحقيق العدالة الاجتماعية ، فكثر حديثه عن اللاطبقية ، والصراع والمجتمع والمحرومين والوعي الطبقي ، وقد أدت كثرة هذه الكلمات إلى تلوين أيديولوجيا (علي شريعتي) بلون شيوعي ، غير أنه حاول صبغها بالصبغة الدينية من خلال تأويل النصوص والمواقف .

وفي إطار مشروع أدلجة الدين يمنح (علي شريعتي) الاقتصاد دورًا محوريًا في الدين الإسلامي ، فالإسلام بنيته التحتية ترتكز على الدنيا ؛ فإن الدنيا في الإسلام مقدمة على الآخرة تقدم العلة على معلولها راجع الدين والظمأ الأنطولوجي ، د/ عبد الجبار الرفاعي ، صـ ١٢٥ ، وصـ ٢١١ ، وإنقاذ النزعة الإنسانية في الدين صـ ٨٠ وما بعدها ، د/ عبد الجبار الرفاعي ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، مكتبة الفكر الجديد .

(٢) الإسلام والحداثة ، د/ عبد المجيد الشرفي صـ٦٠ ، ط الدار التونسية للنشر ، الطبعة الثانية عام ١٩٩١م ، نقلًا عن بحث د/ حسن حنفي (المنشور ضمن أعمال ندوة النهضة العربية عام ١٩٧٢م.

ويشرح د/ عبد الجبار الرفاعي حقيقة مشروع أدلجة العقائد عند د/ حسن حنفي قائلًا : " لاهوت التحرير عند حنفي ...يختزل الدين في أيديولوجيا المقاومة والثورة ...تحويل الدين إلى أيديولوجيا يعني اختزال الإنسان في بُعد واحد ، والروح في القانون ، والعقيدة في الثورة ، والله في الإنسان ، والإلهي في البشري ، والسماء في الأرض ، والغيب في الشهادة ، والميتافزيقا في الطبيعة ، والآخرة في الدنيا ، والروح في الجسد .....، والديني في الدنيوي " (١)

مجالات الأدلجة العقدية :

مما سبق يتضح لنا أن الهدف من مشروع أدلجة العقائد عند د/ حسن حنفي هو أن تصير العقائد نظامًا اجتماعيًا يهدف إلى تشكيل الإنسان ، وتغييره بحيث يكون قادرًا على خدمة المجتمع الذي يعيش فيه ، ولهذه الأدلجة العقدية . عنده . مجالات مرتبطة بالترتيب التقليدي لعلم الكلام عند القدماء ، وفيما يلي عرض موجز لهذه المجالات مع ذكر أمثلة تطبيقية ، والتعقيب عليها :

١-تحويل العقائد إلي أيديولوجيا من خلال تجديد علم الكلام :

افتتح د/حسن حنفي مؤلفه الضخم (من العقيدة إلي الثورة) بمقدمة بيَّن فيها أن هذا العمل ينصب في الأساس علي علم الكلام ، أو بالأحرى هو محاولة -كما يزعم صاحبه -لإعادة بناء علم الكلام ، وتأسيسه علي منهج جديد ، ونبذ مناهج القدماء.

وأولي خطوات هذا التجديد تتمثل في قيام علم الكلام بدوره في تغيير حياة الناس ، وأن يؤدي مهمته في خدمة واقع الإنسان ، وهذا الدور لا يتم

(١) إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين صـ ١٠٠ ، د/ عبد الجبار الرفاعي ، وانظر : الماركسية والدين صـ ٥٣ ، د/ فيصل درَّاج ، ط دار الفارابي ، بيروت .

إلا بالتركيز على الجانب العملي في علم الكلام ، وبعبارة أخرى : لن يقوم علم العقائد بهذا الدور إلا إذا أُعتبر (أيديولوجيا) أي : أفكار قابلة للتطبيق .

وتحت مسمى التجديد ، وفي إطار مشروعه الأيديولوجي أخذ د/حسن حنفي يُسَفِّهُ من طريقة الأولين في الكتابة في علم الكلام، ووصف ذلك العمل السابق بأنه لا يعدو كونه تأليفًا وتجميعًا وحشدًا لقواعد نظرية ؛ ولذا تمحورت محاولته التجديدية حول تحويل القواعد النظرية إلي أيديولوجيا عملية .

ويقول في ذلك : " فإذا كان القدماء قد جمعوا ما في الكتب السابقة المتفرقة ، وكان التأليف هو التجميع ، فإننا نجتهد رأينا من واقع المسؤولية ، مسؤولية الأصوليين الواضعين للعلم والمطوِّرين له ؛ لذلك ارتبط (من العقيدة إلى الثورة) بالعقائد الإصلاحية التي تركز على دور العقائد في تغيير حياة الناس ، تصوراتهم وأساليب حياتهم ، من أجل تغيير الأنظمة الاجتماعية والسياسية وإعادة نظام التوحيد . " (١)

كذلك اعتبر د/ حسن حنفي مؤلفات الأوليين في علم الكلام تخلفًا ورجعية ، ونسيانًا لهموم المسلمين العملية ، وإبقاءً على النظر دون العمل ، وإعطاء الأولوية للمستوى النظري القديم على المستوى العلمي الحديث . (٢)

وبناءً على ما سبق يقَسِّمُ د/حسن حنفي علم الكلام ذاته إلى عِلْمَيْن :

١ . علم الكلام النظري : وهذا العلم هو الذي يتناول في موضوعاته الميتافزيقا الإلهية من صفات وأسماء ، ويتحدث عنها بشيء من التقديس والتعظيم ، (فهو قصد من الإنسان نحو الله) ، إذن : موضوع علم الكلام في جزئه النظري هو الله .

وهذا الجانب من علم الكلام يرفضه د/ حسن حنفي أشد الرفض ، ويعتبره قلبًا لوضع هذا العلم ، وعكسًا لاتجاهه ، فالأصل في علم الكلام . بكل

(١) من العقيدة إلى الثورة ٣٧/١
(٢) راجع من العقيدة إلى الثورة ٣٧/١

قضاياه . أن يكون موجهًا من الله إلى الإنسان ، " فإذا تأملنا الوحي نجد أنه . أساسًا . قصد موجه من الله نحو الإنسان ، أو كلام مُصاغ من أجل الإنسان ، فالله هو المرسِل ، والإنسان هو المرسَل إليه ، الشعور الإلهي قائم على قصد، وهو الحديث إلى الإنسان " (١)

وعلم الكلام النظري الذي هو حديث من الإنسان عن الإله يصفه د/حسن حنفي بأنه (علم مقلوب) ، وبهذا تصبح مشاكل علم الكلام وقضاياه التي تناولها المتكلمون قضايا كاذبة ؛ ولذا كانت الحاجة داعية إلى إعادة وضع هذا العلم وضعًا صحيحًا حتى تُحل مشاكله ؛ ولهذا كان البديل الأمثل . في نظره . أن تتحول قضايا علم الكلام من مجرد ثقافة نظرية إلى أيديولوجيا عملية ، وذلك من خلال إرساء قواعد علم الكلام العملي .

٢ . علم الكلام العملي : ولعلم الكلام (العملي) . خاصة . عند د/حسن حنفي مكانة متميزة في محاولته (لأدلجة العقائد) ؛ ذلك لأن علم الكلام هو الذي يعطي الناس تصورًا عن عالم الغيب ، وبالتالي يصلح لأن يكون موجهًا للسلوك الإنساني ، وعقائد الإيمان هي التي حافظت على هوية الإنسان ، وعلى المستوى الاجتماعي كانت العقائد هي مصدر القوة للأمم في نضالهم وفي جهادهم ، ونتيجة لذلك : كان علم الكلام (العملي) الذي يركز على الأثر الملموس وعلى خدمة المجتمع . (٢)

ويعتبر د/ حسن حنفي الاتجاه إلى الجانب العملي في علم الكلام مقياسًا لعالم الكلام الجيد ؛ ولهذا يوجه عالم الكلام أن يتوجه مظان الخطر الجديد ، وألا يصول ويجول في معارك سابقة ، لا يأتي الخطر منها ، مثل البراهين على وجود الله ، وإثبات خلق العالم ، وخلود النفس ، فهي معارك قد تم كسبها من قبل ، وبقي له أن يدخل في معارك أخرى خسر فيها جولات

(١) من العقيدة إلى الثورة ٥٥٦/٢

(٢) راجع من العقيدة إلى الثورة ٣٧/١ .

وجولات مدافعًا عن ثروات الأمة ومستقبلها باسم علم الكلام الجديد ، واضعًا له تعريفًا جديدًا ، أو هدفًا جديدًا ، أو موضوعًا جديدًا ، أو منهجًا جديدًا ، مادام العصر قد تغير ، والزمان قد تبدل ، والتاريخ كله قد انتقل من مرحلة إلى أخرى ، ومن دورة إلى دورة " (١)

وللأثر العملي الملموس لهذا العلم ، ودوره في الدفاع عن ثروات الأمم ومستقبلها كان من أشرف العلوم ، وأعلاها قدرًا ومنزلةً ، فشرف علم الكلام في الأساس عند د/حسن حنفي لا يرجع إلى موضوعه كما اشتهر عند أكثر علماء علم الكلام القدامى ، وإنما يرجع شرفه إلى حجم تأثيره وإلى إسهامه في تغيير المجتمعات وفي توجيه السلوك.

أو بعبارة أخرى : شرف علم الكلام عند د/حسن حنفي يكمن في كونه (أيديولوجيا) عملية حاكمة ؛ لأن هذا هو ما يعود بالمنفعة المباشرة ، وإلا فما الفائدة من كون هذا العلم متعلقًا بصفات الله وأسمائه ، وبذوات الرسل ؟

لا فائدة تعود على الفرد والمجتمع من كون علم الكلام شريفًا في ذاته، شريفًا في موضوعاته ، وإنما شرف العلم في أثره الفاعل في المجتمع ، " فالشرف ليس من الموضوع ـ كما قال القدماء ـ بل من الأثر والقدرة على تحريك الناس وتجنيد الجماهير والدخول في حركة التاريخ " (٢)

وهكذا : يمكن القول بأن أولى الخطوات التطبيقية لمشروع التجديد أو(أدلجة العقائد)عند د/حسن حنفي يبدأ من بيانه لطبيعة علم الكلام في التراث ، وحاجة هذا التراث الكلامي إلى التجديد ، وهذا لا يكون إلا بثورة حقيقية ؛ ولذا جاء عنوان كتابه (من العقيدة إلى الثورة) وهو عنوان معبرٌ عن غايته التجديدية التي تكمن في تحويل العقائد من ثقافة نظرية إلى

(١) نحو علم كلام جديد : تاريخية علم الكلام ، د/ حسن حنفي صـ٢٢٧ (بحث ضمن موسوعة فلسفة الدين ، الجزء الثالث (علم الكلام الجديد ، مدخل لدراسة اللاهوت الجديد ، وجدل العلم والدين) ط مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، ودار التنوير ، ط أولى عام ٢٠١٦م .

(٢) من العقيدة إلى الثورة ٣٨/١

إيديولوجيا عملية ، ومعبرٌ . كذلك . عن النقلة التحويلية من التقليد إلى التجديد، ومن الجمود على النظر إلى التحويل إلى المشاركة الفاعلة في المجتمع .

ويرى صاحب هذا المشروع أن هذا العنوان لم يكن تقليدًا أو جريًا على سنن السابقين في التأليف ؛ فإن أسماء المؤلفات السابقة تركز على الناحية النظرية أو على إبراز قدرة المصنف الفائقة في التصنيف والعرض ، أما مصنفه هو فهو مشروع تجديد وإعادة بناء .

ويعتبر د/ حسن حنفي هذا العمل يُعطي منهجية واضحة لكيفية نقل الأمة من الماضي إلى الحاضر ، وكيفية عودة الفاعلية إلى التوحيد ليكون نظامًا سياسيًا للمجتمعات ، وعودتها باعثًا ثوريًا عند الجماهير ، وأساسًا نظريًا لفهم العالم " [1].

وقفة نقدية:

يمكن التعقيب على ما سبق إجمالًا بما يلي :

١ . أصل هذه المحاولة قائم على مغالطة أو تصور خاطئ من صاحبها ؛ فقد تخيل أن التراث الكلامي قائمٌ على الانفصام والفصل بين الجانب النظري والجانب العملي في العقائد ، والأمر ليس كذلك ؛ فإن علم العقائد في الأصل يتناول موضوعات الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وهذه الموضوعات بذاتها هي تناولٌ علمي لأركان الإيمان .

فهي نظرية الأصل ، ولكنها كذلك ليست قاصرة على النظر ، بل لها بُعد إيماني ينعكس أثره على السلوك والعمل ؛ وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم حينما قرن كثيرًا بين الإيمان والعمل الصالح في أكثر من موضع ، فقال تعالى في غير موضع **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)** [سورة البينة آية ٧] ، وقال تعالى **(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ**

(١) من العقيدة إلى الثورة ٤١/١ ، بتصرف يسير ، وانظر : التراث والتجديد صـ ١٧٧ ، د/ حسن حنفي ، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت . لبنان ، الطبعة الرابعة عام ١٩٩٢م .

يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) [سورة الفرقان آية ٧٠] ، كذلك فسَّر الله تعالى الإيمان الكامل بالعمل فقال **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)**

نعم الإيمان في حقيقته تصديق القلب ، ولكن العمل هو شرط لكماله ، وبرهانٌ على ما وقر في القلب من عقد الإيمان ، وهذا ما يُفهم من قوله . صلوات ربي وسلامه عليه**(إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ}** [التوبة: ١٨]) [(١)] ، ومن الأثر المروي عن الحسن البصري **(إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الْإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ)** [(٢)].

فالعمل عند أهل السنة ليس أمرًا هامشيًا ، وليس عنصرًا غير مؤثر . كما هو الحال عند المرجئة . ، وإنما هو البعد الثالث من أبعاد الشعور الثلاثة

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة ، في كتابه المصنف في الأحاديث والآثار ، حديث رقم ٣٠٣٥١ ، الجزء السادس ، صـ ١٦٣ ، تحقيق : كمال يوسف الحوت ، ط مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٩ هـ ، والبيهقي في شعب الإيمان بلفظ (لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، مَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّهُ اللهُ عَلَى قَوْلِهِ، وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا رَفَعَهُ الْعَمَلُ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [سورة فاطر: آية ١٠]) ، حديث رقم ٦٥ ، الجزء الأول صـ ١٥٨ ، ط مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، ط أولى عام ٢٠٠٣ م.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه بسنده من حديث أبي سعيد الخدري . رضي الله عنه . ، أبواب الإيمان ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ، حديث رقم ٢٦١٧ ، وقال الترمذي فيه: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَسَنٌ» .(سنن الترمذي ١٢/٥ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط مصطفى الحلبي ١٩٩٥م)
وأخرجه الحاكم في المستدرك من حديث أبي سعيد الخدري ، كتاب الطهارة ، باب : ومن كتاب الإمامة وصلاة الجماعة ، حديث رقم٧٧٠ ، وقال الحاكم فيه : " هَذِهِ تَرْجَمَةٌ لِلْمِصْرِيِّينَ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي صِحَّتِهَا وَصِدْقِ رُوَاتِهَا غَيْرَ أَنَّ شَيْخَيِ الصَّحِيحِ لَمْ يُخَرِّجَاهُ " . (المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم ٣٣٢/١ ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، ط أولى١٩٩٠م

التي تتألف منها الحقيقة الإيمانية الكاملة وهي : التصديق القلبي ، الإقرار اللساني ، العمل بالجوارح . (١)

٢ . أيضًا : كلامه ينطوي على تهميش دور علم الكلام القديم ، والقول بعدم فائدته ، وهذا الكلام محل نقد ؛ فعلم الكلام هو أشرف العلوم موضوعًا ، وأعلاها فائدةً وغايةً ، وقد نصَّ العلماء المتقدمون منهم والمتأخرون ، المشتغلون به وغير المشتغلين على فوائد كثيرة لهذا العلم ، ومن جملة ما ذكروه من فوائد ما يلي :

أ . الدفاع عن العقائد الإسلامية ؛ فإن علم الكلام في أصله هو علم للحجاج عن العقائد .

ب . الاستفادة الذاتية للمؤمن بالترقي في مدراج الإيمان .

ج . الاستدلال العقلي على العقائد .

د . عبادة الله تعالى والدعوة إليه على بصيرة .

هـ . وضع أسس العلوم الشرعية الأخرى .

و . معرفة أخطاء الغير .

ز . صون القلب عن الشبهات ، والخروج من الشبهة إذا نزلت ، والتمكن من حلها إذا عرضت ، وفي هذا صون للنفس ، وصون للدين ، وبذلك يسعد المكلف في الدارين . (٢)

وبهذه الفوائد يتبين لنا أن علم الكلام له دور إيجابي . عمليًا ونظريًا . في حياة الأفراد والجماعات ، وله . كذلك . غايات تجعل هذا العلم متطلبًا أساسيًا للحضارة والرقي ؛ فهذا العلم استجابة للنزعة العقلية التي حررها الإسلام

(١) راجع : المختار من كنوز السنة النبوية صـ ٩٠ ، د / محمد عبد الله دراز ، ط دار القلم ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، عام ٢٠٠٤ م .

(٢) راجع : رسالة استحسان الخوض في علم الكلام للإمام أبي الحسن الأشعري صـ ٢١ ، ط دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط أولى ١٩٩٥ م ، وشرح المقاصد للسعد التفتازاني ٣٧/١ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى عام ٢٠٠١م ، وشرح المعالم في أصول الدين لابن التلمساني صـ٦٨ ، ومقدمة ابن خلدون صـ ٣٢١ ، ط دار ابن خلدون بالإسكندرية .

من العبودية لغير الله ، كما أنه مواءمةٌ لفطرة الاختلاف تبعًا لاختلاف المصالح ، وهو . كذلك . مواءمةٌ للنمو الحضاري للأمة الإسلامية في جوانبها المختلفة مما له صلة بأصول الدين .

وبناءً على كل ما سبق يصح القول بأن علم الكلام هو قيادة للحضارة الإسلامية في طريقها نحو الرقي الدائم ، ولا يصلح لهذا الدور إلا علم الكلام ؛ لأنه يعني بأصول الدين ، والتي قامت الحضارة الإسلامية عليها . (١)

ولما كانت الأشياء تتمايز بأضدادها ؛ فإن فائدة علم الكلام القديم ودوره يتأكد ويزداد تألقًا إذا تخيلنا عدم وجوده في الوقت الذي توافدت على الأمة الإسلامية التيارات الفكرية المدمرة بما جرَّته على العقائد من سؤالات ، وما أثارته على الدين من شبهات .

يقول المرحوم الأستاذ الدكتور / يحيى هاشم فرغل : " وإن المرء ليكاد يُؤخذ من هول تصوره لما كان يمكن أن يحدث لو أن هذا الهجوم العقدي وجد بين المسلمين فراغًا ، والتقى فيهم بالمواقف السلبية " (٢)

٣ـ التعبير عن البعد العملي التطبيقي للعقائد بلفظ موهم ، وهو لفظ أيديولوجيا، وهذا أمر مرفوض ؛ لأن هذا اللفظ يحمل دلالات تتناقض مع الدين. (٣)

ولوكان وصف العقائد بالأيديولوجيا اصطلاحًا خاصًا بصاحبه لهان الخطب ؛ لكنه استوحى من هذا اللفظ دلالاته في بيئته الأولى ، وحاول تطبيقه

(١) راجع : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام صـ ٣٩١، د/ يحيى هاشم فرغل ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، عام ٢٠١٩ م .

(٢) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام صـ ٣٩٠ ، د/ يحيى هاشم فرغل .

(٣) بالرجوع إلى مفهوم الأيديولوجيا في بيئته الأولى نجد أنه يشير إلى نزعات مادية خالصة ، كما يشير في جانبه السياسي إلى استبداد مفرط تمارسه الطبقة الحاكمة ، كذلك يشير إلى قانون مغلق لا يقبل التعديل ، وهو بهذه الدلالات يتناقض مع الدين .

على العقائد ، ففتح بذلك الباب على مصراعيه أمام نظريات مستحدثة كالتأويل العبثي ،والقول بالأنسنة في الذات ،وفي الصفات ، وفي الأسماء ، وغيرها .[١]

٤. التسفيه المستمر لعقليات السابقين ، والتهوين من التراث الكلامي ، واعتباره رجعية وتخلفًا ، وقد صارت لغة التسفيه للسابقين سمة مميزة للجانب النقدي عند د/ حسن حنفي ، فمن اللحظة الأولى يعلن تمرده على التراث وعلى تقاليد السابقين بما فيها افتتاح مؤلفاتهم بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) : "وإذا كانت بعض المقدمات الإيمانية القديمة تبدأ فقط باسم الله الرحمن الرحيم ، فإننا نبدأ باسم الأمة". [٢]

٢ . تحويل العقائد إلي أيديولوجيا من خلال أنسنة الصفات الإلهية :

من الأمثلة الحاضرة على أدلجة العقائد عند د/حسن حنفي تأويله لصفات الإله وأسمائه بشكل عملي ، وتفسير معناها فقط بما يخدم الإنسان ، وطرح جانبها الميتافيزيقي الغيبي .

بل يعتبر الصفات الإلهية (إنسانيات) لا إلهيات ، أو إنسانيات مقلوبة ، أو بعبارة أكثر صراحة يعتبر الصفات حقيقة في الإنسان مجازًا في الإله ، وقد توصل إلى هذه النتيجة بعدما عرض الاحتمالات العقلية الممكنة في المسألة ، ثم استبعدها ، وأبقى منها هذا الاحتمال ؛ فإن الصفات لا يمكن أن تكون في الإنسان وفي الله على الحقيقة ؛ لأنه لا سبيل إلى العلم بحقيقة الصفات الإلهية ، كذلك الصفات لا يمكن أن تكون مجازًا في الله وفي الإنسان، وإلا أدى ذلك إلى انسداد باب معرفة الإنسان لنفسه ، أيضًا : لا يمكن القول بأن الصفات في الإنسان مجازًا ، وفي الله حقيقة ؛ لأن ذلك يؤدي إلى استحالة معرفة صفات الله عن طريق قياس الغائب على الشاهد ، وهو الطريق العقلي لإثبات الصفات [٣].

(١) راجع : من العقيدة إلى الثورة ٢/ ٥٥١
(٢) من العقيدة إلى الثورة ٣٠/١
(٣) راجع من العقيدة إلى الثورة ٥٥٢/٢

وبعد استبعاد هذه الاحتمالات الثلاثة لا يبقى إلا الاحتمال الأخير ، وهو أن تكون الصفات في الإنسان واقعًا وحقيقةً ، وفي الله قياسًا وخيالًا ووهمًا، وبهذا ينتهي د/ حسن حنفي إلى النتيجة التي يريدها ، وهي : أن التنزيهات ، أو أوصاف الذات الستة ، . على حد تعبيره . وصفات المعاني السبع هي . في واقع الأمر . صفات إنسانية خالصة ، وهي تعبر عن الوعي الخالص للإنسان ومظاهره ، وكل صفة تعبر عن طاقة إنسانية ، أو ملكة بشرية . (١)

ويؤكد على فكرة (أنسنة الصفات) بنقده لطريقة القدماء في عرض الصفات فيقول : " فطريقة العرض القديمة تجعل الله طرفًا في كل مشكلة ، ويكون مع الإنسان الله ، المشخص ، المريد ، الفاعل ، القادر ... ولكن التوحيد موضوع مستقل بذاته ، فالتوحيد يعني : وحدة البشرية ، ووحدة التاريخ ....، ووحدة الإنسان ، ووحدة الجماعة ، ووحدة الأسرة . " (٢)

وبهذا يكون وصف الله . تعالى . بصفاته العلية ممثلًا لموقف اليمين في الفكر العقدي ، ذلك الموقف الذي يقتصر على جانب النظر ، والبحث الميتافزيقي فقط للصفات ، وهذا يعبر عن حالة الضعف والعجز ؛ لأن الحياة لها جانبان : النظر والعمل ، ولكن اقتصار القدماء في صفاته . تعالى . على جانب النظر فقط يُحَوِّلُ حياة الإنسان إلى صنم عقلي ثابت ، وهذا نوع من الوثنية اللاشعورية .

أما الاتجاه الآخر فيحاول استرداد هذه الصفات التي هي أخص خصائص الإنسان ، وبالتالي يتحول الثبات إلى حركة ، والتأليه النظري إلى واقع ونشاط عملي ، والقهر إلى تحرر ، وهذا هو موقف اليسار في الفكر

(١) راجع : من العقيدة إلى الثورة ٥٥٥/٢ ، و نحو علم كلام جديد : تاريخية علم الكلام ، د/ حسن حنفي صـ٢٢٨ (ضمن موسوعة فلسفة الدين . الجزء الثالث) .

(٢) التراث والتجديد صـ ١٥٣ ، د/ حسن حنفي ، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت . لبنان ، الطبعة الرابعة عام ١٩٩٢م .

العقدي ، وهذا الاتجاه . في رأي د/ حسن حنفي . هو الاتجاه التقدمي ؛ لأنه يهدف إلى إعادة بناء الإنسان العالم القادر المريد . (١)

وهكذا يقرر د/حسن حنفي في جلاء إحدى مبادىء الأيديولوجيين ، وهي القول بمركزية الإنسان ، وأنه هو محل الاهتمام ، ومحور العناية ، ويزيد هذا المعنى إيضاحًا من خلال قوله : " فالإنسان هو اتجاه الوحي ، وموضوعه، هدفه ، وغايته ، ولما كان الوحي هو العلم الإلهي ، كان موضوع العلم الإلهي هو الإنسان ، إذا حللنا الشعور الإلهي وجدنا الإنسان في بؤرته ، فهو الاتجاه والغاية ، هو المنبع والمصب " (٢).

وبعد محاولة د/ حسن حنفي نقل الإنسان إلى بؤرة الشعور ، وإعلاء إنسانيته فوق ميتافزيقا الإلهيات يصبح الطريق مُمَهَدًا تمامًا لتحويل قضايا الألوهية بكل مسائلها من صفات وأسماء من ثقافة إلى أيديولوجيا ، أو تحويل التوحيد من الجانب النظري إلى الجانب العملي .

يقول في ذلك : " توحيد الذات والصفات . إذن . ليس توحيدًا عن طريق إطلاق قضايا موجبة مثل : الله عالم ، أو سالبة (الله ليس جاهلًا) بل هو توحيد عملي عن طريق تحقيق الأوصاف الستة (التنزيهات مع الصفة النفسية) ، والصفات السبع (صفات المعاني) ، والأسماء التسعة والتسعين في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية . " (٣)

وقفة نقدية :

بعد نقل محاولة د/ حسن حنفي (أدلجة) قضايا الإلهيات يمكن تقرير بطلانها كما يلي :

(١) راجع اليمين واليسار في الفكر الديني صـ١٣ ، ١٤ ، د/ حسن حنفي ، ط دار علاء الدين للنشر ، دمشق ، ودار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، عام ١٩٩٦م .

(٢) من العقيدة إلى الثورة ٥٥٧/٢

(٣) من العقيدة إلى الثورة ٦٠٩/٢

أ ـ القول بتحويل الإلهيات من ثقافة إلى أيديولوجيا عبر أنسنة الصفات الإلهية يترتب عليه القول بتمديد المقدس ليشمل الإنسان ، وهذه فرية غريبة ؛ فالإنسان عنصر مكرم ، مفضل على كثير مما خلق الله تفضيلًا ، إلا أن ذلك لا يعني نقل صفات الله إليه على جهة الحقيقة .

ب . القول بأن الصفات في الله . تعالى . على المجاز لا يصح ؛ فالصفات ثابتة لله تعالى حقيقة ، لكن بالمعنى الذي يعلمه الله وحده ، وما يذكره المتكلمون في مصنفاتهم من مفاهيم الصفات فهو من قبيل الرسوم التي تفيد أن صفات الله . تعالى . متميزة عن صفات الحوادث ، لا الحدود الكاشفة عن حقيقة الصفات، فهذه المفاهيم لا تعدو كونها عبارات تقريبية ، سيقت في مقام الدراسة والتعليم .

يقول ابن عرفة الدسوقي في حاشيته على أم البراهين : " واعلم أن تعريف المصنف لهذه الصفات رسوم مفيدة لتمييز بعضها عن بعض ، لا حدود بذاتياتها ؛ لأن العقول محجوبة عن كنه ذاته وصفاته تعالى، فيتعذر . حينئذٍ . التعريف بالذاتيات " (١)

ج . تركيز د/ حسن حنفي على التوحيد العملي بهذا الشكل مبنيٌ على تصوره بأن علماء الكلام يهملون الجانب العملي ، ويختزلون علم الكلام في قضايا نظرية ، والأمر ليس كذلك ؛ فإن علم الكلام يشتمل على الجانبين العملي والنظري ؛ فإن مقصده هو أن يعبد الله ، ويدعى إليه على بصيرة، وعبادة الله والدعوة إليه ليست تنسكًا خالصًا ، وليست اعتزالًا سلبيًا ، إنما هي تحقيق عملي لدين الله على الأرض . (٢)

(١) حاشية ابن عرفة الدسوقي على شرح السنوسي لأم البراهين صـ ٩٩ ، طبعة مصطفى الحلبي بمصر ، الطبعة الأخيرة ، عام ١٩٣٩م .

(٢) راجع شرح معالم أصول الدين صـ ٦٨، تأليف : شرف الدين بن التلمساني ، تحقيق : عواد محمود عواد ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، الطبعة الأولى ، عام ٢٠١١م .

٣ . تحويل العقائد إلي أيديولوجيا من خلال بعض قضايا النبوات :

يواصل د/ حنفي مشروعه الذي يهدف إلى التجديد في علم الكلام بتحويل العقائد من ثقافة إلى أيديولوجيا في باب النبوات ، وسوف نعرض لبعض الأمثلة فيما يلي :

أ . الادعاء أن النبوة حسية :

يرى د/ حسن حنفي أن النبوة ذات صبغة عملية ، فهي ليست منحة ربانية ، وليست مصدرًا خاصًا من مصادر المعرفة فحسب ،كما أنها كذلك ليست غيبية ، بل هي . قبل كل ذلك . مشروعة لمصالح العباد ، يقول موضحًا هذا المعنى : " فالنبوة ليست غيبية ، بل حسية تؤكد على رعاية مصالح العباد، والغيبيات اغتراب عنها ، والمعارف النبوية دنيوية حسية تتعلق بشئون الناس ، وصلاح معاشهم " (١)

وهكذا تتحول النبوة من الأمر الاصطفائي القائم على المنح الصرف إلى شيء مقصود مشروع لمصالح العباد ، نعم يترتب على البعثة فوائد لا تحصى كثرة ، فهي لطف من الله ورحمة للعالمين ، وهي لا تبنى على اكتساب ولا على استحقاق من المبعوث ، بل هي في الأصل منحة من الله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وتأتي الفوائد المترتبة عليها ، تابعة لها . (٢)

لكن القول بأنها شُرعت لمصالح العباد يقوم على أصل غير جائز عند أهل السنة ، وهو تعليل أفعاله تعالى بالأغراض الباعثة والدافعة له تعالى في فعله وتركه ؛ فإن الله تعالى لا يدفعه دافع ، ولا يبعثه باعث ، بل هو يفعل ما يشاء . سبحانه . ، ولا يُسأل عما يفعل .

(١) من العقيدة إلى الثورة ٢٣/٣

(٢) راجع شرح المقاصد ٣ / ٢٦٩ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى عام ٢٠٠١م .

ب . التفسير العملي للوحي :

يؤكد د/حسن حنفي على النزعة العملية من خلال التركيز على الوحي باعتباره . فقط . طريقًا وواسطة للرسالة التي بها صلاح العباد ، فيقول في هذا المعنى : " لا شأن لنا بالصلة بين الله والرسول ، وطريقة الاتصال بينهما بالملاك أو بغيره ، اسمه ، شكله ، وصوته ، فذلك لا يمكن معرفته حسًا أو عقلًا ..... ما يهمنا هو الرسالة ذاتها التي بها صلاح العباد "(١).

وبناءً على ما سبق كان أهم ما في قضية إرسال الرسل هو : نفس الرسالة ، والمرسَل إليه ، أي : البشر ، فالرسالة تتضمن أربعة أركان هي : المرسِل وهو الله ، والمرسَل وهو النبي ، والمرسَل إليهم وهم العباد ، والرسالة، وأهم طرف في هذه المعادلة الرباعية هي الرسالة والتكليف ، والمرسَل إليهم ، أي : نحن البشر ، عباد الله في التاريخ .

ولم يقتصر د/ حسن حنفي على ذلك ، بل انطوى كلامه على لغة لا تليق بمقام الأنبياء ، فمع تأكيده وتركيزه على أهمية الرسالة ، والمرسَل إليهم، يقلل من شأن الرسول أو النبي ، ويعتبرهما فقط مجرد واسطة لإيصال الرسالة ، وليس النبي جزءً من النبوة بشخصه ، بل بعد أن يبلغ الرسول رسالته يستوي حضوره وغيابه ، فالمهم هو الرسالة والمرسَل إليهم حتى لو كان الرسول مجهولًا ، أو غائبًا ، وتبقى رسالته بعده ببقاء المرسَل إليهم يحملونها عبر الأجيال ، ويحققونها في التاريخ (٢).

ج . وجوب بعثة الرسل لمصالح العباد :

اختلفت المذاهب الكلامية في حكم إرسال الرسل :

فذهبت البراهمة إلى استحالة البعثة ؛ لأن العقل يغني عنها ، ولشبهاتهم حول المعجزة .

(١) من العقيدة إلى الثورة ٢٤/٣

(٢) راجع من العقيدة إلى الثورة ٢٦/٣

وذهبت الفلاسفة إلى لزومها بناءً على قولهم بأن الله موجب بالذات لا فاعل بالاختيار ، والكون بما فيه يصدر عنه صدورًا أوليًا كصدور المعلول عن علته التامة .

وذهبت الأشاعرة والماتريدية إلى القول بإمكانها على اختلاف بينهما في العبارة دون المعنى.

وذهبت المعتزلة إلى القول بوجوبها بناءً على كونها لطفًا بالعباد ، وصلاحًا لهم . (١)

وقريبًا من مذهب المعتزلة يذهب د /حسن حنفي إلى القول بوجوب النبوة لما لها من بُعد عملي في المجتمع ، ولما فيها من صلاح للعباد ، ورعاية لمصالحهم ، وبهذا تكون النبوة واجبة عنده لكونها (أيديولوجيا) عملية ذات طبيعة ملموسة . (٢)

وهكذا تنبني كل مباحث النبوة وقضاياها الأخرى من نحو عصمة الأنبياء وصفاتهم ومعجزاتهم على نفس الفكرة ، وهي مراعاة مصالح العباد ؛ ولأجل هذا كان النبي معصومًا من أجل سلامة الرسالة وهداية المرسَل إليهم على نحوٍ صحيح .

وقفة نقدية :

الدعوة إلى أدلجة النبوة واختزالها في مصالح العباد باطلة لما يلي :

١. فكرة أدلجة النبوات مبنية على القول بأن أفعاله تعالى بالأغراض ، وهذا أصل فاسد ؛ فإن فعل الله تعالى لو كان معللًا بغرض لكان الله تعالى ناقصًا بذاته ، مستكملًا بهذا الغرض . (٣)

(١) راجع شرح المقاصد ٢٦٩/٣ .

(٢) راجع : من العقيدة إلى الثورة ٢٨/٣

(٣) راجع : أبكار الأفكار للإمام الآمدي ١٥٣/٢ ، تحقيق : د/ أحمد المهدي ، ط دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٤م

٢ ـ تناسي القدسية الذاتية للنبوة من جهة النبي والوحي ، والتركيز فقط على العنصر البشري فيها ، فالنبوة مقام شريف في ذاته ؛ فهي : " عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل " (١) ، كما أن النبي شريف في ذاته ؛ لأن إرساله لم يبن على كسب واكتساب ، وإنما بُني على الاصطفاء الصرف . (٢)

٣ . القول بوجوب النبوة بناءً على نفس الأصول التي بنى عليها المعتزلة مذهبهم : كالقول بوجوب اللطف بالعباد ، وفعل الأصلح لهم على الله ، وهذه أصول باطلة .

٤ . تحويل العقائد إلي أيديولوجيا من خلال تهميش السمعيات :

من أصول فلسفة الأيديولوجيا في الغرب تنحية النقل والوحي ، والاعتداد الشديد بالعقل دون سواه ، وقد تأثر د/حسن حنفي بذلك في مشروعه التجديدي ، فتوسع في تطبيق مشروعه الأيديولوجي على قضايا السمعيات ، ورأى أن السمعيات . وفقًا لمشروعه . تعبر عن مستقبل الإنسان ، كما أن النبوات تعبر عن ماضيه (٣).

أما مسائل السمعيات التي طرحها القدماء فهي أمور فرعية ، و ليست أصلية ؛ لأنها لا تثبت بالعقل ، يقول موضحًا هذا المعنى : "ومعظم هذه السمعيات آتيةٌ من السنة ، وليست من القرآن ، مما يوحي بأنها فرعية لا أصلية ، نقلية لا عقلية ، وبالتالي يمكن الاستغناء عنها باعتبارها ظنًا خالصًا ، تخضع لصدق الرواية، ومدى الحاجة إليها"(٤).

(١) المنقذ من الضلال للإمام أبي حامد الغزالي صـ ١٤٧ ، ومعه أبحاث في التصوف للإمام الأكبر/ أد: عبد الحليم محمود ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ١٩٧٤م .

(٢) راجع شرح المقاصد ٢٧٠/٣

(٣) راجع اليمين واليسار في الفكر الديني صـ٢٣ ، د/ حسن حنفي .

(٤) من العقيدة إلى الثورة ٤٢٥/٣ ، وانظر كذلك : اليمين واليسار في الفكر الديني صـ ٢٠

ويقول أيضًا : " ثم يجعل اليمين الديني السمعيات كلها . التي شملت كل شيء تقريبًا . يقينيات يكفر منكروها ، أو المختلفون في تفسيرها ، وهو بهذا يساوي الله ، وهو اليقين بأمور المعاد ، وهي الظنيات مزايدة في الدين ، ومغالاة فيه ، وقطعًا لا يرضاه المتدينون ولا العقلاء على حد سواء . " (١)

ويؤكد د/حسن حنفي على البعد الأيديولوجي العملي للسمعيات ، فيعتبرها ليست مهمة في الدين ؛ إذ لو كانت مهمة في الدين تعم بها البلوى لوُجدت في القرآن ، ويعتبرها كذلك حقائق مكتسبة من المجتمعات ، تابعة لمصالحها ؛ ولذا فهي تتغير بتغير المجتمعات . (٢)

تعقيب :

يمكن التعقيب إجمالًا علي محاولة تحويل السمعيات إلى أيديولوجيا بما يلي :

١ . اعتبار أن السمعيات فرعية ، وليست مهمة في الدين مخالف لما عليه العلماء ؛ فالسمعيات من أصول علم العقائد ، والإيمان بها ركن من أركان الدين ، وهي ثابتة بأدلة قطعية ؛ ولذا يجب التصديق بها .

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في الاقتصاد : " ثم كل ما ورد السمع به يُنظر : فإن كان العقل مُجوِّزًا له وجب التصديق به قطعًا إن كانت الأدلة السمعية قاطعة في متنها ومستندها ، لا يتطرق إليها احتمال " (٣)

٢ . قوله بأن السمعيات فرعية ؛ لأن أكثرها ثابت بأدلة السنة يُفهم منه القول بأن أدلة السنة عمومًا . سواء كانت متواترةً أم آحادًا . لا تفيد اليقين ، وهذا طعن في دلالة الأخبار ، والطعن فيها يؤدي إلى الطعن في جملة الشريعة (٤).

(١) اليمين واليسار في الفكر الديني صـ ٢٠

(٢) راجع : من العقيدة إلى الثورة ٤٢٦/٣

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام أبي حامد الغزالي ٤٨٦/٢ ، تحقيق : أد/ مصطفى عبد الجواد عمران ، طبعة دار البصائر بالقاهرة ، ط أولى عام ٢٠٠٩م .

(٤) راجع شرح المعالم لابن التلمساني صـ ١٢٥ .

يقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي مبينًا يقينية الأخبار : " وإذا تأملت أدلة كون الإجماع حجة ، أو خبر الواحد ، أو القياس ، وجدتها راجعة إلى هذا المساق . أي : التواتر المعنوي . ؛ لأن أدلتها مأخوذة من مواضع تكاد تفوق الحصر ... وإذا تكاثرت الأدلة على الناظر عضد بعضها بعضًا ، فصارت بمجموعها مفيدة للقطع . " (١)

ومما سبق يتبين لنا أن خبر الواحد قد يفيد اليقين إذا انضم إليه ما يقويه من قرائن تحتفي به ، أو طرق تعضده ، أو أصل قطعي يرجع إليه ، وإذا أفاد خبر الواحد اليقين في هذه الأحوال فالخبر المتواتر يفيده من باب أولي ، هذا فضلًا عن أن أصول السمعيات ثابتة بأدلة قطعية الثبوت من قرآن أو سنة متواترة ، وأما أخبار الآحاد الواردة في السمعيات فأكثرها في الفروع : كالأحاديث في صفة الصراط ، أو في كيفية الوزن ، أو تعيين الموزون .

وبعد :

فقد كانت هذه مجرد أمثلة تطبيقية لمشروع تحويل العقيدة إلى أيديولوجيا عند د/حسن حنفي ، وتبين لنا من خلالها أنه حاول جاهدًا إخضاع العقائد بجوانبها المختلفة لفكره الحداثي بدعوى التجديد .

ومشروع أدلجة العقائد عند د/حسن حنفي . وإن حاول تبريره بشكل نفعي ، يصبُّ في جانب رعاية مصالح العباد . لا يسلم من النقد ، فهو يمس الثوابت ، وينال من المقدسات ، وقد ظهر من خلال الوقفات النقدية في هذا المبحث أن دعوى أدلجة العقائد باطلة ؛ لأنها تقوم على إخضاع الدين وقضايا العقيدة خاصة للنظريات الحداثية ، وهذا لا يصح ؛ إذ إن الدين لا يمكن اعتباره أيديولوجيا ، بل الدين بما له من خصائص عبارة عن قوانين حاكمة للمجتمعات ، موجهة لهم إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة ، وذلك بخلاف الأيديولوجيات التي وضعت لصالح طائفة معينة .

(١) الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ٢٧/١ ، تعليق : د/ محمد عبد الله دراز ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ، عام ٢٠٠٦م .

خاتمة البحث :

بعد هذه الإطلالة الموجزة على فلسفة الأيديولوجيا وظروف ظهورها ونشأتها نخلص إلى النتائج التالية :

١ . الأيديولوجيا في أول أمرها كانت مصطلحًا فلسفيًا أُطلق على علم جديد يتمحور حول الإنسان بما هو به إنسان ، ثم طرأت على هذا المصطلح تغيرات وتحولات نقلته من مجرد مصطلح إلى فلسفة وعلم له كيانه .

٢ . تأثرت فلسفة الأيديولوجيا بتيارات فلسفية متعددة ، وظهر هذا الأثر من خلال السمات الفكرية المشتركة بينها وبين غيرها من الفلسفات الأخرى .

٣ . بفعل الدينامية والتطور المستمر التي تتميز به الأيديولوجيا أصبحت هذه الفلسفة الجديدة آلة في يد الماركسية لتبرير نظامها الطبقي المستبد ، كما أصبحت آلة لإدانة الأفكار .

٤ . على مستوي العلاقة بين الأيديولوجيا والدين تقوم عدة فروق بينهما تجعل من المستحيل أن ندخل الدين ضمن المنظومات الأيديولوجية ، ومن الأبعد في الاستحالة أن يوصف الإسلام بأنه أيديولوجيا .

٥ . كما فشلت الأيديولوجيا في صبغ الدين بصبغتها فشلت فكريًا وفلسفيًا ؛ ولذا توجهت لها عددًا من الانتقادات جعلت فريقًا من المفكرين يعلن نهاية الأيديولوجيا.

وختامًا : توصي الدراسة بما يلي :

١ . دراسة فلسفة الأيديولوجيا بشكل موسع في رسالة جامعية .

٢ . دراسة وافية تتناول دعوى أدلجة العقائد عند دعاة الحداثة في رسالة جامعية .

٣ . دراسة النزعات والفلسفات الجديدة دراسة واعية من أجل الوقوف على أصولها الفكرية ، ومن ثَمَّ نتناولها بالنقد والتفنيد دفاعًا عن الإسلام وصيانة لمبادئه .

٤ . دراسة الاتجاهات الجديدة في الفلسفة المعاصرة والتيارات الفكرية ؛ لأنها تمثل مرجعيات فكرية لأكثر النزعات التي يتبناها دعاة الحداثة في العالم العربي والإسلامي .

ثبت المصادر والمراجع :

١ . الإبداع في مضار الابتداع ، تأليف: الشيخ علي محفوظ ، ط مكتبة الإيمان ، ومكتبة الجامعة الأزهرية ، ط أولى ٢٠١١م .
٢ . أبكار الأفكار في علم الكلام ، تأليف : الإمام سيف الدين الآمدي ، تحقيق : أد/ أحمد المهدي ، ط دار الكتب المصرية ، ط ثانية ٢٠٠٤ م.
٣ . أسس الفلسفة ، راكيتوف ترجمة : موفق الدليمي ، ط دار التقدم ، موسكو.
٤ . الإسلام والحداثة ، د/ عبد المجيد الشرفي ، ط الدار التونسية للنشر ، الطبعة الثانية عام ١٩٩١م
٥ . الأيديولوجيا ، تأليف : ديفيد هوكس ، ترجمة : إبراهيم فتحي ، ط المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٠م .
٦ . الأيديولوجيا الألمانية ، تأليف : كارل ماركس ، فردريك إنجلز ، ترجمة : د/ فؤاد أيوب ، ط دار دمشق للنشر ، سوريا .
٧ . الأيديولوجيا غريزة المتحيز وفلسفته ، د/ محمود حيدر ، مجلة الاستغراب (صادرة عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية . بيروت . لبنان) ، العدد السادس ، شتاء عام ٢٠١٧ م .
٨ . الأيديولوجيا في تطورات دلالية ، مازن المطوري ، بحث بمجلة الاستغراب الصادرة عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، بيروت ، لبنان ، العدد السادس ، شتاء عام ٢٠١٧م .
٩ . الأيديولوجيا في الدين والسياسة ، تمظهرات الإشكال في التفكير الغربي ، د/ غيضان السيد علي ، مجلة الاستغراب اللبنانية ، العدد السادس ، شتاء عام ٢٠١٧م .
١٠. الأيديولوجيا ، الكلمة ، الفكرة ، الشيء ، تأليف : بيار ماشريه ، ترجمة : هدى الفقيه ، مجلة الاستغراب . العدد السادس ، شتاء عام ٢٠١٧م .

١١ . الأيديولوجيا كما يراها مؤسسها ، مجلة الاستغراب ، تأليف : ليليان موري، ترجمة : د/ عماد أيوب .

١٢ . الأيديولوجيا ، نحو نظرة تكاملية ، د/ محمد سبيلا ، ط أولى ١٩٩٢م ، المركز الثقافي ، بيروت .

١٣ . الأيديولوجيا وثائق من الأصول الفلسفية ، تأليف : ميشيل فاديه ، ترجمة د/ أمينة رشيد ، وسيد البحراوي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٦م .

١٤ . الأيديولوجيا بين الحقيقة والزيف ، إدريس هاني (بحث بمجلة عالم الفكر، العدد ٣ ، المجلد ٣٦ ، يناير . مارس ٢٠٠٨م) . صادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، دولة الكويت .

١٥. الأيديولوجيا واليوتيوبيا ، مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة ، تأليف : كارل مانهايم ، ترجمة : د/ محمد رجا الديريني ، ط أولى ١٩٨٠م ، شركة المكتبات الكويتية .

١٦ . الأيديولوجيا واليوتيوبيا في فكر مانهايم مجلة الاستغراب ، د/ محمد أمين بن جيلالي .

الأيديولوجيا غريزة المتحيز وفلسفته ، د/ محمود مراد .

١٧ . البراجماتية ، تأليف : وليام جيمس ، ترجمة : محمد علي العريان ، تقديم : زكي نجيب محمود ، ط المركز القومي للترجمة ، عام ٢٠٠٨ م .

١٨ . البراجماتية عرض ونقد، د/ منصور عبد العزيز الحجيلي ، الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة والأديان والمذاهب – مجلة الدراسات العقدية – العدد الرابع، المدينة المنورة.

١٩ . البيان الشيوعي ، تأليف : كارل ماركس . فردريك إنجلز ، ترجمة : العفيف الأخضر ، منشورات الجمل ، بيروت . بغداد ، ط أولى ٢٠١٥م

٢٠ . تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، طبعة الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠١٧م
٢١ . تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ، طبعة الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠١٧م
٢٢ . الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة ، د/ عبد الفتاح الديدي ، ط الهيئة العامة للكتاب
٢٣ . التراث والتجديد ، د/ حسن حنفي ، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت . لبنان ، الطبعة الرابعة عام ١٩٩٢م .
٢٤ . حاشية ابن عرفة الدسوقي على أم البراهين ، ط مصطفى الحلبي . ط أخيرة ١٩٣٩م.
٢٥ . الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، عقائدها ، وحكم الإسلام فيها ، تأليف : د/ محمد أحمد الخطيب ، ط مكتبة الأقصى ، الأردن ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٨٦م .
٢٦ . حكمة الغرب ، تأليف : برتراند رسل ، ترجمة : د/ فؤاد زكريا ، ط عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، دولة الكويت ، عام ٢٠٠٩م
٢٧ . دراسات في الفلسفة الحديثة ، أد/ محمود حمدي زقزوق ، ط مكتبة الأنجلو المصرية.
٢٨ . دفاتر فلسفية ، ترجمة وإعداد : محمد سبيلا ، عبد السلام بن عبد العالي ، ط ثانية ٢٠٠٦م ، دار توبقال للنشر . الدار البيضاء . المغرب .
٢٩ . الدين في حدود مجرد العقل ، تأليف : إيمانويل كانط ، ترجمة : فتحي المسكيني ، ط دار جداول للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ٢٠١٢م .

٣٠ . الدين والظمأ الأنطولوجي ، د/ عبد الجبار الرفاعي ، ط أولى ٢٠١٦، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، العراق.
٣١ . رجال الفكر ، تأليف : براين ماجي ، ترجمة : نجيب الصادي ، طبعة جامعة قان يونس ، بنغازي ، ليبيا .
٣٢ . رسالة استحسان الخوض في علم الكلام للإمام أبي الحسن الأشعري ، ط دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط أولى ١٩٩٥ م.
٣٣ . سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط مصطفى الحلبي ١٩٩٥م .
٣٤ . شرح العقائد النسفية للإمام سعد الدين التفتازاني ، ط مطبعة كردستان العلمية .
٣٥ . شرح معالم أصول الدين ، تأليف : شرف الدين بن التلمساني ، تحقيق : عواد محمود عواد ، ط المكتبة الأزهرية للتراث ، الطبعة الأولى ، عام ٢٠١١م .
٣٦ . شرح المقاصد للسعد التفتازاني ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى عام ٢٠٠١م
٣٧ . شعب الإيمان ، ط مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، ط أولى عام ٢٠٠٣ م.
٣٨ . الشيعة بين الغلو والاعتدال ، أد/محمد الأنور حامد عيسى ، ط مكتبة الإيمان ، القاهرة .
٣٩ . صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ثانية ١٩٩٣م.
٤٠ . عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام ، د/ يحيى هاشم فرغل ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، عام ٢٠١٩ م .

٤١ . فضائح الباطنية ، تأليف : حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، تحقيق : إبراهيم بسيوني نور الدين ، ط الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠٩م .
٤٢ . الفكر العلمي الجديد ، تأليف : غاستون باشلار ، ترجمة د/ عادل العوا ، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٣م .
٤٣ . الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، طبعة الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠١٧م.
٤٤ . الفلسفة اليونانية ،يوسف كرم ، طبعة الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠١٧م
٤٥ . في الأيديولوجيا والقول ، د/ عبد الوهاب المسيري (مقال بموقع الجزيرة نت الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٨/٤/١ م) .
٤٦ . الاقتصاد في الاعتقاد للإمام أبي حامد الغزالي ، تحقيق : أد/ مصطفى عبد الجواد عمران ، طبعة دار البصائر بالقاهرة ، ط أولى عام ٢٠٠٩م.
٤٧ . القرامطة ، تأليف : أبي الفرج بن الجوزي ، تحقيق : محمد الصباغ ، ط المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط خامسة عام ١٩٨١م .
٤٨ . ما الأيديولوجيا ، ياكوب باديرون ، ترجمة : أسعد رزق ط ١٩٨٥م.
٤٩ــ الماركسية والدين ، د/ فيصل درَّاج ، ط دار الفارابي ، بيروت ، ط ثالثة ٢٠١٧م .
٥٠ . محاضرات في الأيديولوجيا واليوتيوبيا لـ (كارل مانهايم) صـ ٣١ ، ترجمة : فلاح رحيم ، ط دار الكتاب الجديد المتحدة .
٥١ . المختار من كنوز السنة د / محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، القاهرة ، ط أولى ٢٠٠٤م
٥٢ . مختصر دراسة التاريخ ، تأليف : أرنولد توينبي ، ترجمة : فؤاد محمد شبل ، مراجعة : محمد شفيق غربال ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ، عام ٢٠١٥م .

٥٣ . المذاهب الفلسفية المعاصرة ، سماح رافع محمد ، ط أولى مكتبة مدبولي، عام ١٩٧٣م .
٥٤ . المستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، ط أولى١٩٩٠م .
٥٥ . معجم مصطلحات علم الاجتماع ، تأليف : جيل فيريول ، ترجمة أنسام محمد الأسعد، مكتبة الهلال ، بيروت، عام ٢٠١١م.
٥٦ . المعجم الفلسفي ، د/ مراد وهبة ، ط الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠١٦م.
٥٧ . المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٨٣
٥٨ . مفهوم الأيديولوجيا ، د/ عبد الله العروي ، الطبعة الثامنة ، ٢٠١٢ م ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب . بيروت ، لبنان .
٥٩ . مقدمة ابن خلدون ، ط دار ابن خلدون بالإسكندرية .
٦٠ . من العقيدة إلى الثورة ، د/ حسن حنفي ، ط مكتبة مدبولي ، القاهرة.
٦١ . المنقذ من الضلال للإمام أبي حامد الغزالي ، ومعه أبحاث في التصوف للإمام الأكبر/ أد: عبد الحليم محمود ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ١٩٧٤م .
٦٢ . الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ، تعليق : د/ محمد عبد الله دراز ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ، عام ٢٠٠٦م .
٦٣ . موسوعة لالاند الفلسفية ، تأليف : أندريه لالاند ، تعريب : خليل أحمد خليل ، ط منشورات عويدات ، بيروت . باريس ، ط ثانية ٢٠٠١م .
٦٤ . الميتافزيقا ، العصر والإيديولوجيا ، تأليف : كارل منهايم ، ترجمة : عبد السلام بنعبد العالي ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٨١ م ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الدار البيضاء .

٦٥. نحو علم كلام جديد : تاريخية علم الكلام ، د/ حسن حنفي (بحث ضمن موسوعة فلسفة الدين ، الجزء الثالث (علم الكلام الجديد ، مدخل لدراسة اللاهوت الجديد) ط مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، ودار التنوير ، ط أولى عام ٢٠١٦م .

٦٦ . نظرات في العقيدة الإسلامية ، د/ محمد الأنور حامد عيسى .

٦٧ . هذا ما يعنيه مفهوم الأيديولوجيا ، يوسف محمد ، مقال بموقع إضاءات الإلكتروني.

الوجودية مذهب إنساني ، جان بول سارتر ، ترجمة : عبد المنعم الحنفي ، ط أولي ١٩٦٤م .

٦٨ . اليمين واليسار في الفكر الديني ، د/ حسن حنفي ، ط دار علاء الدين للنشر ، دمشق ، ودار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، عام ١٩٩٦م .